

أو الطاغوت

مسائل أساسية في التصور الإسلامي

تأليف

أ. د. عماد الدين خليل

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

اللهُ

أَوِ الطَّاغُوتُ

مَسَائِلُ أَسَاسِيَّةٌ فِي ٱلتَّصَوُّرِ ٱلإِسْلَامِيِّ

تأليفُ

أ. د. عماد الدّين خليل

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

خليل ، عماد الدين .
الله أو الطاغوت : مسائل أساسية في التصور الإسلامي / تأليف عماد الدين خليل . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٢م .
١٩٢ ص ؛ ٢٠ سم .
تدمك ٨ ٠٣٢ ٧١٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الإسلام مبادئ عامة .

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

* * *
* *
*

اللّـه.. أو الطاغوت

(١)

في القرآن الكريم دعوة صريحة لرفض طاعة أولي الأمر وتحقيرها واستهجانها، أو التنديد بأولئك الذين يمارسونها وتوعدهم بأشد العقاب.. وذلك عندما يكون أولو الأمر، سادة وأمراء ورؤساء ومترفين وسلاطين وخلفاء وحكامًا، في خلاف مع اللّه ورسوله!!

وليس كما يقول الخبثاء من أصحاب السلطة والمصلحة، ويردد السذج من المغفلين والمستعبدين من أن على المؤمن إطاعة أولي الأمر؛ لأن ذلك من أمر اللّه!!

وكيف يناقض القرآن الكريم نفسه (وحاشاه).. ويدعو إلى تنفيذ أمر الطاغوت والتزام تشريعه وقوانينه ونظمه، إذا كان الطاغوت يستهدف أساسًا تدمير كلمة اللّه في الأرض، وانتزاع حاكميته، وتعبيد الناس له من دون خالق الناس؟!

من يرضى أن ينساق وراء هذا الفهم السخيف إلا أن يكون ساذجًا أو خبيثًا؟

إن كتاب اللّه سبحانه يقولها صريحة واضحة لا لبس فيها ولا غموض: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ويقولها واضحة صريحة لا لبس

فيها ولا غموض: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣] ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].. فكيف يعقل أن يدعو في الوقت نفسه، وباتجاه نقيض تمامًا، إلى طاعة أولي الأمر حتى لو كانوا ممن لم يحكم بما أنزل اللّه، وممن يفتنون الناس عن دينهم، وممن يمارسون الظلم بقسر الناس على الخضوع لمناهجهم وتشريعاتهم على حساب دين اللّه وتشريعه؟!

إن طاعة أولي الأمر بهذا المعنى تتمخّض بالضرورة عن سعي مضاد، أو ثورة مضادة بالتعبير الحديث، تستهدف تدمير دين اللّه في الأرض والتمكين لنظم الطاغوت.. وذلك أمر مردود من أساسه، لا يقبل مناقشة أو لجاجًا، وذلك أمر مرفوض..

* * *
* *
*

(٢)

ها هو القرآن الكريم يندد في عشرات المواضع بهذه العلاقة المرذولة بين السادة الذين يحكمون بما لم ينزل اللّه وبين العبيد الأتباع ممن ينساقون لتنفيذ كلماتهم وأهوائهم وظنونهم.. لا يندد بهم فحسب، ولكنه يسخر منهم ويحقرهم.. ويعرض - على طريقته المؤثرة - مشاهد حية شاخصة مما سيشهد يوم الحساب من (حواريات كاريكاتيرية) بين أولئك وهؤلاء.. بين الطواغيت والأرباب الذين يعبدون الناس لحسابهم وبين العبيد الذين يختارون أن يعملوا لصالح الطواغيت والأرباب، متنازلين عن حريتهم التي منحهم اللّه إياها، مستهينين بكرامتهم التي فضّلهم اللّه بها على العالمين..

وبقدر ما يرفض القرآن الطغيان والاستعباد، فإنه يرفض بنفس القوة والعنف التذلل والهوان.. فلولا هذا ما كان ذاك.. والطاغوت الذي لا يجد من يعبده، ويسبح بحمده، ويلتزم أوامره، وينفذ منهجه وتشريعه.. يموت قهرًا!!.. أو على الأقل يحمل عصاه ويرحل.. لأنه لا يجد الأرضية الملائمة لأن (يكون)!! ومرة أخرى.. ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]!!.

* * *
* *
*

(٣)

لنرحل في كتاب اللّه ولنقف قليلًا نعاين هذا المشهد أو ذاك مما سيشهده يوم الحساب وكأنه واقع اللحظة؛ حيث يلغي العرض القرآني - على طريقته الفذة - حاجز الزمن، ويقفنا وجهًا لوجه إزاء يوم الحساب..

المشاهد كثيرة.. لأنه ما من تجربة كررت نفسها عبر تاريخ البشرية كتجربة استعباد الناس للطاغوت وتعبيدهم لأهوائهم وظنونهم، والذهاب بهم بعيدًا عن شرع اللّه العادل ومنهجه المحرر ودينه المستقيم.. ما من (لعبة) أعادت نفسها بألف ثوب وثوب كلعبة فراعنة العالم وهم يقسرون الناس على أن يسجدوا لهم من دون اللّه وأن يفعلوا وينفذوا ما يرونه هم.. لا ما يريده اللّه ولا ما يراه الناس أنفسهم.. إنها مأساة التاريخ البشري وملهاته في الوقت نفسه..

المشاهد كثيرة.. ولن يتسع المجال لتمليها جميعًا.. فلنكتف ببعضٍ منها.. نماذج فحسب لما يريد القرآن أن يقوله في نهاية كل مشهد بلسان الحال أم بلسان المقال.. رفضًا لطاعة أولي الأمر ودعوةً لفك الارتباط المخزي معهم، ونداءً للسعي صوب مصير أكثر حريةً وإضاءةً وانسجامًا مع كرامة الإنسان ومكانته في العالم..

* * *
* *
*

(٤)

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

فهل ثمة ما يدعو إلى رفض الطاعة، وينفر منها، أكثر من هذا الموقف المخزي الذي تنكشف فيه الأوراق ويتبدى عجز المستكبرين على حقيقته ومداه؟

إنهم لن يستطيعوا أن يحجبوا عن أتباعهم ولو شرارة واحدة من نار.. ولن تغني عن الضعفاء تبعيتهم الطويلة للمستكبرين - يومها - لن يغني عنهم استعبادهم أنفسهم لشهوة الطاغوت وتجبُّره.. إن اللَّه قد حكم بين العباد.. ولن يكون أشد الطغاة طغيانًا، إزاء هذا الحكم، سوى أداة هينة لينة يفعل اللَّه فيها ما يريد.. ولن تجدي آلاف السنين من التذلل والتبعية والتمسح.. لمن؟ لأناس لا يملكون إزاء حكم اللَّه أي شيء.. ولا حماية أتباعهم من لفحة من نار..

وإذا كان الأمر كذلك، فلم كانت أيام الاستعباد والتذلل الطويلة في الحياة الدنيا؟ لِمَ كانت سِني القهر والخوف والتبعية؟ أفما كان التحرر ورفع الرأس بما يليق بكرامة الإنسان أليقَ وأجدى؟

ونمضي إلى صورة أخرى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

فها هنا يسرع الطواغيت فيأخذون المبادرة قبل أن يسألهم الأتباع شيئًا فلا يقدرون عليه.. يسرعون فيعلنون براءتهم من الأتباع، فإن العذاب الذي يرونه واقعًا بهم ليقطع الأسباب!!

فما يكون جواب الأتباع - حماية لماء الوجه - إلا أن يعلنوا رغبتهم في العودة ثانية إلى الحياة الدنيا لكي يردوها في وجه الطاغوت ويعلنوا تبرأهم منهم!! ويقينًا أنهم ليسوا بفاعلين حتمًا لو أُستجيبت أمنيتهم وعادوا إلى هناك.. فالنفوس التي تنحني للظلم يلويها الظلم، ولن يكون بمقدور ألف عودة إلى الحياة الدنيا أن تعيدها إلى سويتها.. وتلك هي مأساة الاستعباد.. إنها تقتل الإنسان.. تقطع آخر خيط في قدرته على التشبث بالرفض والمقاومة حماية لحريته وكرامته..

ومهما يكن من أمر فإنه لا الطواغيت ولا الأتباع بقادرين على فعل شيء، وإنما هي أعمالهم تبرز أمامهم حسرات، في ساحة النار التي لن يخرجوا منها بحال..

في سورة (سبأ) نلتقي بمشهد آخر؛ حيث يدور هذا الحوار ﴿ ... يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٣١] فيرد الذين استكبروا: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢] ويجيب الذين استضعفوا ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

فها هم جميعًا، التابعون والمتبوعون، وبعد أن وقعوا في قبضة العدل الإلهي ورأوا العذاب الذي لن ينجو منه تابع ولا متبوع.. ها هم يمارسون ما يمكن تسميته بـ (التعليق).. يتخذ كل طرف من الطرف الآخر مشجبًا يسعى إلى وضع خطيئته عليه لكي ينجو بجلده.. ولن ينجو أحد.. فالمعادلة القرآنية واضحة لا تقبل نقضًا ولا تبديلًا: إن الخضوع للطاغوت الذي يحكم بما لم ينزل اللَّه (جريمة) يعاقب عليها

صاحبها تمامًا كما يعاقب الطاغوت الذي يقسر الناس على التعبد له من دون اللّه سواء بسواء.. ولن يجدي النقاش.

ويتكشف عبث لعبة تعليق المسؤولية هذه أمام الحقيقة النهائية التي يمنحها القرآن، وَفْق طرائقه الفنية، لقارئيه.. فبينما يغرق المخدوعون في مناقشات طويلة معتقدين أن بمقدور أحد الطرفين أن يوقع بالآخر.. ينظر الإنسان – من الخارج – فيعرف مقدمًا عدم جدوى هذه المحاولات.. لقد قضي الأمر وليس ثمة بعد اليوم من معذر.. وكما أن الطغيان أمرٌ مرفوض ومعاقب عليه، فإن التبعية والمذلة أمران مرفوضان – أيضًا – ومعاقب عليهما.. ومن ثم يعقب القرآن الكريم متحدثًا عن الطرفين: ﴿ .. وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣٣].

ولم يقل كتاب اللّه أن الأغلال كانت من نصيب الطواغيت فحسب، بل جعل الطرف الآخر – كذلك – يرسف في قيودها.. الطرف المستعبد، المستضعف.. لماذا؟ لأن تعبدهم وتذللهم كان عملًا ممقوتًا ومرفوضًا، وكان لا بد من أن ينالوا جزاءهم على العمل الممقوت والمرفوض.. إنهم كانوا – كما قال أسيادهم – يحملون الاستعداد الدائم لممارسة الجريمة.. جريمة الطاعة لمن لم يحكم بما أنزل اللّه..

وفي سورة الأعراف؛ حيث يدّارك الطواغيت

والمستضعفون من أتباعهم في النار، نسمع هذا الدعاء الحار من المستضعفين وهم يشيرون بأيديهم إلى الطواغيت: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأعراف: ٣٨] ويكون الجواب الصارم جزاءً مضاعفًا بحجم الجرم الذي مارسه الطرفان معًا: التابع والمتبوع ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨] ويستمر الحوار في جو من اليأس الخانق فتقول أُوْلَاهم لأخراهم: ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٩].

إن تبعيتهم نفسها ترمي بوجوههم من الأسياد فما كان لهم عليهم فيها من فضل!! لقد استسلم الضعفاء وأيقنوا وقوع العذاب بهم، لكنهم يريدونه مضاعفًا لأسيادهم معتقدين أن جرمهم أكبر.. ولكن كتاب اللَّه يضع الموازين القسط فيضاعف العذاب للطرفين.. لماذا؟ لأن التذلل للطغيان، وأتباعه، هو بحجم الطغيان نفسه.. سواء بسواء..

وفي سورة الأحزاب يتكرر دعاء المستضعفين، ويتردد نداؤهم مرة أخرى: أن ينال أسيادهم ضعفينِ من العذاب وأن تحل بهم لعنةُ أكبر، معتقدين أن هؤلاء الأسياد يقفون وراء ضلالهم في الحياة الدنيا، وما دروا أنهم هم، التابعون، صنعوا مأساتهم بأيديهم.. يتردد النداء، ولكن القرآن هنا لا يجيبهم بشيء؛ لأن تركهم هكذا دون جواب أبلغ من أي جواب ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا

ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].. لكأنه بعدم رده عليهم يريد أن يقول لهم موبخًا مبكتًا: ولِمَ أطعتموهم..؟

وثمة في سورة إبراهيم هذا الحوار المؤثر بين الطرفينِ ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١]..

إن الأتباع هاهنا يسلكون طريقًا آخر، إنهم يتجرعون غضبهم على أربابهم ويكبتونه في نفوسهم ويتقمصون موقف المتوسل، علّ طواغيتهم الذين قادوهم في الدنيا يواصلون قيادتهم في الأخرى ويقدرون تبعية أذنابهم حق قدرها، فيسعون للتخفيف من العذاب الواقع بهم.. ولكن هؤلاء الأرباب يعرفون النتيجة سلفًا، وإذا كانوا في الحياة الدنيا قد قادوهم إلى البوار، فإنهم هاهنا غير قادرين على شيء، فبأيِّ وجه يسعون للتخفيف عنهم؟

إن الطرفينِ يقعان في دائرة الجزاء، وسواء عليهم أجزعوا أم صبروا فما ثَمَّ من محيص!!

* * *
* *
*

(٥)

ويتخذ القرآن الكريم من فرعون مصر رمزًا للطاغوت في كل زمان ومكان.. أي فرعون؟ إن القرآن لا يسميه.. إنه يطرحه رمزًا مجردًا عن اللحم والدم والشخصية.. إنه طاغوت وكفى.. والحق أن طواغيت العالم كله يتشابهون، ليس ثمة تميز واضح بين أحدهم والآخر إنهم (نوعيًا) سواءٌ ولكنهم قد يختلفون بالكمية.. بحجم الطغيان ودرجته وقسوته وعنفه.. ولكنهم يبقون متشابهين كالأرقام الصماء.. نفس الشهوة الجارفة للحكم والسلطان.. نفس الرغبة العاتية في الاستعلاء والامتلاء.. نفس الدافع الرهيب لإذلال الآخرين واستعبادهم.. نفس الهوى الجارف لتدمير شخصيات المتفوقين وتفكيكها وسحقها.. نفس التشنج والجنون إزاء أي اعتراض أو رد أو مناقشة أو مجابهة.. ومن أجل ذلك؛ من أجل أن الطواغيت كلهم فرعون، ومن أجل أن فرعون هو كل واحد من هؤلاء الطواغيت.. فإن القرآن الكريم لا يسميه!!

وبدلًا من ذلك يريد أن يتخذه وسيلة إيضاح، مجرد أداة، لدعوته الصارمة الجازمة إلى رفض الطاعة.. رفض العبودية والتذلل والذوبان في كيان المستكبرين.. وكما كان فرعون - تاريخيًا - أداة بيد قدر اللّه، ضُربت بمصيره الأمثالُ، فإنه - موضوعيًا - كذلك أداة يعتمدها القرآن

لتصوير موقف الطاغوت والتحذير منه في الوقت نفسه وهو يسلط الأضواء عليه من كل زاوية لكي يكشفه على مداه، فيقف فرعون أمام اللَّه والناس والتاريخ عاريًا مكشوف الفكر والهوى والأهداف..

وفي مواضع عديدة من كتاب اللَّه تتوالى ضربات الفرشاة لكي تستكمل - بالكلمة - صورة هذا الكائن المقيت الذي جاء الإسلام لكي يستأصله من العالم ولكي يلحقه بفصيلة الديناصور المنقرضة.. ترى هل سيقدر على ذلك يومًا؟!

لنلقي أسماعنا إلى بعض هذه الضربات.. ثم نمضي إلى زوايا أخرى في الموضوع الذي بين أيدينا، فإن الحديث عن فرعون يطول..

﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴾ [هود: ٩٧].

﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

﴿ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه: ٧٩].

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي

ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٤ - ٦].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٣٨، ٣٩].

فماذا كانت النتيجة؟

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٤٠ - ٤٢].

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

[الزخرف: ٥١ - ٥٤]..

ومرة أخرى ماذا كانت النتيجة؟

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥، ٥٦]..

فالعبرة في النهاية، كما يقول المثل المعروف.

* * *
* *
*

(٦)

والطاغوت الذي هو في النهاية (فبركة) بشرية متشابهة.. وعجينة واحدة.. قد يتغير جلده.. رداؤه الخارجي.. ملامح وجهه وديكوراته.. قد يميل إلى هذا الجانب أو ذاك.. وقد يهد هنا أو هناك.. وقد يهوى تنفيذ نزعته الطاغية بهذه الصيغة أو تلك.. قد يكون الطاغوت ملكًا أو أميرًا أو رئيسًا أو سلطانًا.. وقد يكون أبًا أو جدًّا أو جيلًا من الناس.. وقد يكون غنيًّا أو مترفًا كثير العشيرة والأولاد.. وقد يكون مسرفًا أو مشعوذًا أو كاذبًا أو ماكرًا أو دجّالًا.. وقد يكون فاسقًا أو فاجرًا أو كفّارًا.. وقد يكون مجرمًا أو شيطانًا مَرِيْدًا.. وقد يكون - حتى - كاهنًا أو راهبًا أو رجل دين في نهاية المطاف!!

والقرآن الكريم يلاحق هذه الأنماط المختلفة من الطواغيت.. يلاحقها جميعًا ويدعو بصرامته الحاسمة إلى رفض طاعتها جميعًا!!

ورغم أن اللّه يعرف حق اليقين كيف يصدر هؤلاء جميعًا عن نبع واحد هو شهوة السلطان والتأله على الناس، واستعبادهم، وصرفهم عن التوجه إلى خالقهم جل وعلا.. ويعرف - حق اليقين - المستنقع الواحد الذي تصب فيه هذه الشهوات على اختلاف أنماطها، فإنه يسعى إلى عرضها بأشكالها وصيغها المختلفة كي لا يندّ أحد منها على المؤمنين

الجادّين، وكي تكون كلها في دائرة الضوء، فلا يخفى منها نمط فيطعن من مكمنه ظهور المؤمنين، أو يلوح بإغراء غير مكشوف الأهداف للسذج من الناس.. يدعوهم إلى طاعته..

إن القرآن الكريم يعرض علينا، في حشود من آياته البينات طوابير الطاغوت وكأننا نشهد مهرجانًا أو عرضًا جماعيًّا.. تسير فيه أصناف المستكبرين، مصعرة الخدود، ممطوطة القامات، منتفخة الأوداج.. يعرضها علينا جميعًا ويدعونا إلى رفض طاعتها مهما تنوعت السمات واختلفت الملامح وتلونت الأردية..

فلنقف قليلًا على طرف من الطريق لنشهد، في ختام رحلتنا هذه، جانبًا من مهرجان الأرباب والطواغيت، ونسمع، عند مرور كل وجبة منهم، نداء القرآن الأبدي برفض الطاعة، بلسان الحال أو بلسان المقال.. والتشبث بالحرية التي تليق بمكانة الإنسان: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٣، ٤].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣].

﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [نوح: ٢١].

﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴾ [هود: ٥٩، ٦٠].

﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥٠ - ١٥٢].

﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٩].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

[التوبة: ٣٠، ٣١].

* * *
* *
*

(٧)

ولن نختم رحلتنا هذه قبل أن نسمع معًا إلى هذا النداء التحريري العام الذي يعلنه القرآن الكريم بمواجهة الطاغوت على مدار التاريخ.. ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقبل أن نطّلع معًا على مصير أولئك الذين رفضوا الذهاب مع نداء القرآن وتخلوا عن حريتهم، وساقهم الضعف والخنوع إلى الخضوع للطغيان والاستسلام لمقدراته: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

* * *
* *
*

الظلم العظيم

(١)

إنها قضية الحقيقة الكبرى.. الحقيقة المركزية التي تدور حولَها كلُّ الحقائق.. القضية الأم التي تنبثق عنها حقائق الوجود والمصير كافة.. البدء والمنتهى.. الميلاد والموت.. الفناء والبعث.. القضية الأساس التي تسير بها السماوات والأرض.. تجري السُّدُمُ والنجومُ والكواكبُ في مساراتها.. وتخفق الذرات في أفلاكها.. تنسرب الجواري في بحارها ومحيطاتها.. تحلق الطيور في فضائها.. تكسر البذور قشرة الأرض لكي تطل على العالم واعدة بالخير والنماء والعطاء.. ويصرخ الطفل وهو يغادر رحم أمه حاملًا في صلبه الشهادة على القضية التي هي قبل كل القضايا ومعها وبعدها..

قضية التوحيد!

إنها أكبر القضايا، وأثقلها، وأشدها وضوحًا وفاعلية وألقًا.. على الإطلاق.. ومِنْ ثَمَّ كان الكذب عليها، أو الالتفاف حولها، أو طمسها، أو تزييفها.. هو أكبر كذبة في تاريخ الإنسان والملكوت.. وكان الشرك الذي يتمخض عنها ويؤول إليها هو - بالضرورة - أكبر أنواع الظلم وأعظمها على الإطلاق!

(٢)

ظلم للذات الإلهية المتفردة، المتوحدة، المتعالية، المنزهة، القديرة، الفاعلة، المريدة، الحاكمة، التي لا ولي لها من الذل والتي لا تشرك في حكمها أحدًا.. ظلم بإحالة الجزئي على الكلي، والمحدود على المطلق، والفاني على الخالد، والناقص على الكامل، والمخلوق على الخالق.. ومساواتهما.. ومنحهما معًا أسماء وصفات وأفعالًا واحدة، بينما وحدانية اللَّه تتفرد بأسمائها وصفاتها وأفعالها تفردًا كاملًا مطلقًا منزهًا عن أيِّ قدر من التشبيه أو المقاربة.. متعاليًا بالضرورة التي لا تقبل أيَّ مماحكةٍ أو جدلًا.. هذه الوحدانية التي تتجرأ المخاليق فتضع في مصافها، أو قريبًا منها، ظواهر وموجودات ورموزًا وأوثانًا وصنميات وطواغيت وأربابًا.. هي أولًا وأخيرًا من خلق اللَّه.. وفي قبضته.. لا تعزب عنها.. ولا تستطيع فرارًا من حكمها القاهر حتى لو أوت إلى نفق في الأرض أو ابتغت سُلّمًا في السماء أو سعت للنفاذ من أقطار الكون..

ظلم للحق الذي يتأبى على الكذب والتزوير، وللحقيقة التي ترفض التدليس والتشويه.. ظلم للإنسان نفسه، وتدمير لفطرته النقية، وتجاوز لبداهاته الحسية والعقلية والوجدانية على السواء..

ظلم لجماهير الناس باستلاب حريتها العميقة وإرغامها

على الخضوع للرموز التي يصنعها الظلم العظيم.. للطواغيت والأرباب التي تحكم قبضتها على الرقاب، وتمارس طغيانها وتألهها في الأرض بألف صيغة أو أسلوب، ولكنها جميعًا تنسج بنول واحد، يستمد من خيوط واحدة، وينتهي إلى مصير واحد استعباد الإنسان، وتحويل السعي البشري إلى إقطاعية كبيرة يتنعم فيها الطاغوت، ويتلوى الأتباع مسغبة وقهرًا ومذلة وجوعًا واستلابًا..

ظلم لحركة التاريخ وقوانينها وسننها ووفاقها مع حقائق الكون والوجود التي تنبض بإيقاع واحد، وتمضي صوب هدف واحد، فتزيد فاعليةً وتألقًا وعطاءً، من أجل جعلها ترتطم والنواميس، فتتعارض، وتتفتت وتفقد القدرة على الأداء.. وتنتهي في آخر المطاف إلى تلك القطيعة المرة، والفصام النكد بين التاريخ والناموس!

ظلم على كل المستويات، ومن كل زوايا الرؤية والتصور والسلوك.. ظلم للذات والموضوع.. للفرد والجماعة.. للأرض والسماء.. للمحدود والمطلق.. ولكل ما يتمخض عنها جميعًا من حشود الممارسات والجزئيات والمعطيات.. ومحاولة وضعها في غير أماكنها الدقيقة.. المحكمة، المرسومة، المتوازنة، العادلة، التي أرادها اللّه الواحد الأحد ﷻ!

تُرى، كم من المصائب والمتاعب والأحزان والخسائر

والويلات والتعاسات والآلام.. تجرّعها الإنسان عبر تاريخه الطويل، وهو يرغم على هذا التحول، أو يختاره ابتداءً، فيخرج إلى الفوضى والتسيب والارتجال، ويفقد توازنه.. ويضيع؟!

أليس هو الظلم العظيم الذي يبدأ بالكذب على الحقيقة الكبرى لكي ما يلبث أن ينسحب إلى كل الممارسات والخبرات مهما صغرت ودقت وبعدت عن العيان؟

أليس هو الظلم الذي يلف الكون والحياة والخلائق والموجودات.. ويرغمها على أن تترك مساراتها المحكمة، لكي ترتطم وتتفتت وتتبعثر وتضيع؟

* * *
* *
*

(٣)

وكثيرة هي دوافع الشرك.. هذا الظلم الأعظم الذي يكذب على اللّه والحقيقة والتاريخ والإنسان.. فهنالك شرك الجهل والتخلف الذي يلف جماهير الناس في عصور الأمية والانحطاط.. وهناك شرك الخديعة والضلال الذي يمارسه الطواغيت والأرباب، أفرادًا كانوا أم طبقات وجماعات وفئات، من أجل إحكام قبضتهم على رقاب الناس وإذلالها واستعبادها من دون اللّه.. وهناك شرك المصالح والشهوات.. وشرك العادات والتقاليد.. وشرك الأهواء والظنون.. وهناك، فضلًا عن هذا كله، أو مع هذا كله، شرك التشريع بغير ما أنزل اللّه.. التشريع الذي يُحلّ ما حرّم اللّه ويُحرم ما أحل اللّه، والذي يُفصّل على هوى الأسياد، ومصالحهم، وشهواتهم، الثوب الذي يُرغم على ارتدائه الأتباع، والنظارات التي يرون من خلالها ما يريد لهم الأسياد أن يروه!

وإذا كان الشرك قد اتخذ عبر التاريخ البشري صيغًا وأنماطًا شتى، قد تبدأ بعبادة الأحجار الملقاة على قارعة الطريق.. فإنه يكاد، في قرننا هذا، ينتهي إلى شرك الأتباع، من خلال التشريع بغير ما أنزل اللّه.. عصر المذهبيات والأيديولوجيات والمبادئ والعقائد التي تغوي، بلعبة الأفكار والفلسفات، جماهير الناس، وتسوقهم إلى مواقع التبعية والخضوع والاستعباد.

العصر الذي يريد فيه الحاكمون والمشرعون أن يُسامتوا اللَّه - جل وعلا - وأن تكون لهم، مثله تعالى أو دونه حاشاه، الربوبية والحاكمية والسلطان..

فإذا تذكرنا ما فعلته، وتفعله، وستفعله، هذه الشرائع المقحمة.. هذه النظم والمذاهب الوضعية القاصرة التي آلت إلى الفشل والخسران بعد-أن سرقت من عمر البشرية، وهدرت من طاقات الإنسان، وأكلت من سعادته.. الكثير.. إذا تذكرنا أنه ليس بمقدور أحد، أو جماعة من الناس، مهما أوتي أو أوتيت من قدرة وذكاء وعلم وإحاطة وعدل ونبل في المقاصد والغايات.. إلا أن تخطئ وتقصر وتفقد الرؤية الشاملة، المتوازنة، الدقيقة، الصائبة التى تتجاوز مواضعات الزمان والمكان، وتعلو على نسبيات العِرق أو الطبقة أو الشريحة أو الجماعة أو الجغرافيا أو التاريخ.. إذا تذكرنا هذا كله عرفنا كيف يكون الشرك هو الظلم العظيم، ليس فقط للحقيقة الإلهية، وإنما أيضًا للإنسان نفسه!.

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠].

﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* * *
* *
*

(٤)

من أجل ذلك يعظ لقمان ابنه فيقول: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان: ١٣]، ويحض اللَّه سبحانه على طاعة الوالدين، أو التلطف معهما، إلا في هذه فإنه يأمر أمرًا بالرفض والامتناع: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ ﴾ [لقمان: ١٥]، ومن أجل ذلك يعلنها القرآن الكريم بحسم ووضوح: ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦]، وأن: ﴿ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [المائدة: ٧٢] وأن: ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ [الحج: ٣١] ومن أجل ذلك - أيضًا - يحذر القرآن الكريم مرتين من: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]، ويدعو إلى قتال المشركين كافة: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ ... ﴾ [التوبة: ٣٦]، وإرهابهم: ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ .. ﴾ [آل عمران: ١٥١]، ويضعهم في حالة العداوة القصوى للمؤمنين، جنبًا إلى جنب مع اليهود: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ .. ﴾ [المائدة: ٨٢]، ويعد بالنصر

والظهور عليهم: ﴿ .. لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

ومن أجل ذلك يقطع القرآن الكريم الطريق على محاولة تعليق مسؤولية الشرك، بالجهل أو التقليد، ويعلن عن تركيز الشهادة على الربوبية الواحدة لحظة الخلق الأولى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

فهو، أي الشرك، إذن: الظلم العظيم، والإثم العظيم، والضلال البعيد.. وهو السقوط من الأعالي إلى الأماكن السحيقة.. وهو الذنب الأعظم، من بين سائر الذنوب الأخرى، الذي يحرم على صاحبه الجنة، ويحرمه من نعيم الغفران.. وهو الخطيئة الكبرى التي يتحتم إعلان الحرب على مرتكبيها وإرهابهم في كل زمن ومكان.. وهو موقع الحقد والكراهية الذي يجعل المنتمين إليه في خط العداء الأول لأبناء هذا الدين.. وهو قبل هذا وذاك (الانحراف) الخطير الذي منح الإنسان لحظة ميلاده: الشهادة ضده، ولم يعطِ أيما عذر أو فرصة للانجراف في تياره المدمر بحجة الجهل أو التقليد.

* * *

(٥)

وفي سياقات أخرى يعلن القرآن الكريم إدانته للشرك، ويغذي كل سياق بالعديد من الآيات التي تلقي الضوء - من أكثر من زاوية - على هذا الموقف الظالم!

وفي إحدى هذه السياقات تأكيد على أن الشرك لا يعدو أن يكون ظنونًا وأهواء وخرافات لا تقوم على أي أساس أو استناد من الحجة والعلم والبرهان: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨١].

﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ [غافر: ٤٢].

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥].

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس: ٦٦].

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ ﴾ [الرعد: ٣٣].

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾ [القلم: ٤١].

وفي سياق آخر يكشف تفاهة الشركاء، وسلبيتهم، وخواءهم، وعدم قدرتهم على الفعل والإبداع، ويجردهم من أي قدر من الفاعلية والعطاء:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١].

﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ [فاطر: ٤٠].

﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [الرعد: ١٦].

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ ﴾ [يونس: ٣٤].

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [يونس: ٣٥].

﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ ﴾ [الروم: ٤٠].

وفي سياق ثالث يسخر من شرك المصالح التافهة، ويصور الأكذوبة بالمفردات التي تجعل الأرباب وكهنتها وعُبَّادها هزؤة أمام الناظرين: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ

فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ﴾ [الأنعام: ١٣٦ - ١٣٩].

وينقلنا في سياق رابع إلى ما وراء الحياة الدنيا.. إلى يوم الحساب، ويقف في آيات ومقاطع عديدة ليُدين حالة الشرك بطرفيها: التابع والمتبوع، وليُعري أمام حشود الناس الأرباب والأذناب في سلسلة من الصور والمشاهد والتعابير التي تُشْدِه الحس وتأخذ بتلابيب الوجدان البشري كي لا يجنح، وهو بعد في الأرض، باتجاه الوادي السحيق.. وكي يتردد ألف مرة قبل أن يخطو خطوة واحدة، بل قبل أن تختلج في مشاعره خالجة واحدة، تُحبب إليه أن يلتفت إلى دنيا الخبث والأوهام والظنون والمصالح والخرافات والعبودية هذه التي تدينها كلمات اللّه. ولقد تحدّثنا عن هذه الصور

والمواقف في موضع آخر من هذا الكتاب، ويكفي - تجاوزًا للتكرار - أن نحيل القارئ عليه[١].

وفي سياق خامس يعلن الرسل والأنبياء - عليهم السلام - وهم يخوضون معركة التوحيد ضد الشرك، ويتقدمون الحركة الدائمة على مدى التاريخ البشري لإعادة الحق إلى نصابه وتجنيب البشرية مأساة الظلم العظيم، يعلنون تبرؤهم المطلق من الشرك والمشركين، ومفاصلتهم إياهم، وإعلان الحرب عليهم، بغض النظر عن مقدار القوة المنظورة التي يملكها أيٌّ من الطرفين؛ لأن الهدف أكبر بكثير وأشد إلحاحًا من التردد قليلًا للنظر في موازين القوى؛ ولأن اللَّه سبحانه قد تكفل بنصر رسله ومبعوثيه في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ما داموا قد أدّوا الأمانة ومضوا على الصراط المستقيم دون أيِّ قدرٍ من التردد أو التراجع أو الخوف:

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ ﴾ [الأنعام: ٨١].

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾ [الرعد: ٣٦].

﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

---

(١) انظر على وجه الخصوص: موضوع (دعوة إلى رفض الطاعة) وموضوع (الكاريكاتير القرآني).

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

[هود: ٥٤].

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

[الأعراف: ١٩٥].

﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾

[يونس: ٧١].

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

﴿ بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

[التوبة: ١].

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

* * *

* *

*

(٦)

وقبل هذه السياقات، ومعها، وبعدها، تتدفق الكلمات القرآنية والآيات البيّنات، منزهة اللَّه الواحد سبحانه، مقدسة تفرده بالأسماء والصفات والأفعال، مزيحة - وهي تنزه وتقدس خالق السماوات والأرض والإنسان، وقيومها المتعالي الذي لم يلد ولم يولد - كل الضلالات والخرافات والظنون والأوهام التي استعبدت العقل والوجدان البشريينِ القرون الطوال.. معيدة الألق إلى هذه الحقيقة الأم.. الحقيقة الأساس التي تنبثق عنها وتقوم عليها كل الحقائق الأخرى في هذا الوجود.. ولن يكون ذلك في بدء التحليل وخاتمته، إلا انتصارًا لحرية الإنسان، وسعادته، وكرامته في هذه الحياة:

﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٢].

﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣].

ولنستمع - أخيرًا - إلى هذا النداء العلوي المؤثر، العميق، الشفيف، الذي يعلن، في أقطار الكون الأربعة: وحدانية اللَّه، وتعاليه، وتفرده بالأسماء والصفات والأفعال، والتي تكتسح

بألقها الذي يبهر الأبصار ظلمات الشرك وزيفه وعتمته وثقله وانحساره في الجحور الضيقة والزوايا المظلمة التي يقطنها ويزحف فيها الطواغيت والشركاء والأرباب، وطوابير الأذناب والمستضعفين والمستعبدين: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

فمع من يتحتم أن يذهب الإنسان، وإلى أين يفيء إذا أراد التحرر والأمن والسعادة والخلاص؟

اللَّه الواحد سبحانه، الذي يحكم الكون والحياة والوجود، ويضع أقدارها وموازينها، ويرسم مساراتها ومصائرها؟ أم الشركاء الذين لا يملكون أمر أنفسهم ولا يتمتعون بأية قدرة حقيقية على الفعل والهيمنة والحكم وصياغة المصير، والذين يتوهمون - لعجزهم - أن الحفر الضيقة التي يستعبدون في دهاليزها الأتباع والعبيد والمستضعفين، هي الكون كله على امتداده العميق.. البعيد الذي تمسك به إرادة واحدة وحكم واحد وكلمة واحدة هي كلمة اللَّه الذي لا رادَّ لكلماته: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤].

أبجديات حول خرافة فصل الدين عن الدولة

(١)

إن معنى أن يكون اللَّه في السماء إلهًا وفي الأرض إلهًا هو أن يكون صاحب الكلمة الأولى هنا وهناك.. الحاكم والمشرع هنا وهناك.. المالك والمدبر هنا وهناك.. المقدر والمصرف هنا وهناك..

إن القرآن يقولها صراحة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤].. والذين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة.. أو إعادة الدين إلى سماواته العليا ورفض تدنيسه بأوحال السياسة، كما يقولون، أو تحييد الدين وعدم تسييسه أو زجّه بالسياسة، كما يشتهون، الذين يعلنون بأن ما للَّه للَّه وما لقيصر لقيصر.. إنما يقفون، شاءوا أم أبوا، بمواجهة هذه القاعدة القرآنية الصارمة.. الواضحة.. وكأنهم يطلبون من اللَّه سبحانه أن يسحب يديه من العالم وأن يكتفي بحكم ما وراءه.. وحاشاه!!

ألا يدري هؤلاء بأن كلمة (ألوهية) لغةً واصطلاحًا تعني الربوبية والحاكمية، وأن من يكون إلهًا في أي مكان من الكون والعالم، يكون ربّه وحاكمه بالضرورة؟

أفيكون اللَّه إلهًا حاكمًا في الكون.. وإلهًا غير حاكم في العالم، لا لشيء إلا ليفسح الطريق أمام الطواغيت والأرباب والفراعنة والكهنة لكي يستعبدوا الناس (لحسابهم) من دون اللَّه؟!

وما هي مصلحة جماهير الناس في أن يتنازلوا عن حريتهم وكرامتهم ومكانتهم في العالم لصالح حفنة من المتألهين في الأرض؟ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]..

* * *
* *
*

(٢)

إن آيات الحكم بدين اللَّه في الأرض.. أي بمنهجه وتشريعه وقوانينه ونظمه.. واضحة، صريحة، بيّنة:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

[المائدة: ٤٤].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

[المائدة: ٤٥].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

[المائدة: ٤٧].

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾

[المائدة: ٤٩].

وإن ألف محاولة للتعتيم عليها لن تزيدها إلا وضوحًا بحكم حقيقة الدين نفسه باعتباره طريقًا للخلاص، ورؤية شاملة للكون والحياة والإنسان، وبرنامجًا لصياغة الوجود البشري والتحقق بالوفاق مع المصير.. وإن أية شريعة أخرى يضعها هذا الطاغية أو ذاك، ويصنعها هذا الفرعون أو ذاك، ويخطط لها هذا الإله أو ذاك.. لن تزيد الإنسان إلا تفتتًا وتمزقًا.. ولن تزيد الجماعة إلا تعاسةً وشقاءً.. ولن تتمخض إلا عن ارتطام محزن بين الوجود والمصير..

ثم إن هؤلاء الطواغيت كثيرون جدًّا، ومناهجهم وأديانهم كثيرة جدًّا، وكل منهم يدعي، لسفهه وغروره وتألهه، أنه هو صاحب الكلمة النهائية في هذا العالم، وإن طريقه هو الطريق.. فأي من هؤلاء تتبع حشود الناس، وكيف سيكون الناس - وهذا ما كان فعلًا - لو أن كل جماعة منهم انتموا لهذا الطاغوت أو ذاك، وقاتلوا عنه، ورفضوا دعوة الفراعنة الآخرين؟

إن معضلة التاريخ البشري هي هذه، وإن الحل الأوحد هو هذا الانتماء لدين اللَّه الواحد.. لصراطه المستقيم الذي لا صراط غيره ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* * *
* *
*

(٣)

فَمَنْ تريدون أن يشرع لكم اللَّه المنزه عن الميل والظن والهوى، أم العباد المترعون ميلًا وهوًى، الممتلئون ظنًّا والذين تبين لكم في رحلة التاريخ البشري كم هم حريصون على عدم تجاوز مصالحهم الخاصة إلى مصلحة الإنسان، والتنازل عن مواقعهم المتفردة من أجل جماهير الناس؟

إن الدين يريدها أن تكون للناس جميعًا؛ لأن اللَّه هو خالق الناس جميعًا، وربهم وإلههم.. والطواغيت يريدونها لهم أولًا، ولحفنة ممن يسبِّحون بحمدهم ويعززون سلطتهم في الأرض ثانيًا.. ولا شيء وراء هذا وذاك..

إما أن يكون الدين للَّه؛ حيث يتساوى الناس جميعًا وتفتح أمامهم سبل الحياة الحرة العادلة المتوحدة الكريمة.. وأما أن يكون للطاغوت؛ حيث الفتنة التي لن ينجو من ذيولها أحد.. الطاغوت ومن يسكت على حكم الطاغوت ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

* * *
* *
*

(٤)

إن المسألة في جوهرها صراع بين تحرير الإنسان من تأله الطواغيت وبين خضوعه لألوهيتهم وطغيانهم.. ليس ثمة تفسير آخر للدين.. وما كان اللّه ﷻ ليدع عباده يضربون بغير هدًى، ويندفعون عبر رحلة التاريخ فوضى ذات اليمين وذات الشمال لكي ما يلبثوا أن يقعوا في مصيدة الاستعباد والإذلال..

إن الفراعنة ينتظرون في كل زمان ومكان لكي يضربوا ضربتهم، ولكي يبنوا على تيه الجماعات والأمم والشعوب مجدهم المدعى وتجبرهم المرتجى.. إن الدين هو التحذير الذي يضرب به اللّه سبحانه وجوه هؤلاء الطواغيت على أيدي رسله كي لا يسترسلوا في طغيانهم ويعمهوا في غيّهم.. وهو التحرير لجماهير الناس من كل ما يمسّ كرامتها ومكانتها وتفردها على العالمين.. وهو منهج حياةٍ وبرنامج عملٍ لن يضل من ينتمي إليه ويعمل من خلاله.. إنه يوصد الأبواب أمام لعبة الطغيان ومأساتها.. فإن لم يدخل الدين ساحة الفعل والتحقق والمجابهة والصراع.. فمن يوقف الفراعنة عند حدهم؟ من يردهم على أعقابهم؟ من يجردهم من سلاحهم ويكشف كيدهم؟

إنه ليس ثمة حل وسط.. فإما أن يكون الدين فاعلًا في التاريخ، معتمدًا كل الأدوات التي تمكنه من أداء مهمته بما

فيها (السياسة) و (الدولة)، وإما أن لا يكون على الإطلاق.. فليس ثمة معنًى لأن يعبد اللَّه في هذا المبنى أو ذاك.. في هذا الجامع أو الكنيسة، بينما عباد اللَّه في الخارج يستعبدون ويستضعفون ويعبدون بالقسر والإكراه لمدعي الألوهية من الطواغيت والأرباب..

لقد قالها الفاتحون الأجداد مرارًا وسيقولها أحفادهم تكرارًا: « جئنا لكي نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده.. » إن الدين هو حركة خروج في قلب الواقع من حال إلى حال، ولن يتحقق ذلك إلا بأن يمارس المنتمون للدين حقهم في تنفيذ هذا العمل التاريخي الدائم.. ما دام هنالك أبدًا من تحدثه نفسه بأن يتسلط على رقاب الجماهير ويكون فرعونها المطاع..

هل يخلو التاريخ من هؤلاء؟

* * *
* *
*

(٥)

إننا إما أن نقبل الدين كاملًا أو أن نرفضه مزقًا وتفاريق.. وإلا أعدنا لعبة بني إسرائيل التي دمغها القرآن بالظلم والكفر والخزي ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

إن أي منهج أو قانون وضعي لا يمكن إلا أن يقبل كاملًا، وليس من المعقول أن يقول مواطن ما في أية دولة إنه ليعجبني هذا الجانب من القانون وسألتزم به، وينفرني ذلك الجانب ولن أكون ملتزمًا به.. إنه حينذاك يعرض نفسه لعقاب السلطة التي تقوم مهمتها على حماية التنفيذ الكامل للقانون.. لماذا؟ لأن الانتقاء الكيفي سوف يعرض سياسة الدولة وبرنامج عملها للتميع والتناقض، وسوف يقودها إلى التفكك والدمار..

أفيكون هذا شأن القوانين والنظم الوضعية، ولا يكون شأن القوانين والنظم الصادرة من عند اللّه.. لماذا؟ وكيف يفسر هذا إن لم يكن في رغبة الطاغوت الحثيثة في تدمير الموقف الديني أساسًا بكونه برنامج عملٍ شاملًا، وتفتيته وتمزيقه لكي يخلو له الجو فيفرض قانونه الذي لا راد له والذي لن يسمح لأحد بأن ينتقي منه ويختار؟

لقد حذّر القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا من أنه ليس ثمة أي مجال لممارسة لعبة الانتقاء هذه إزاء معطيات الدين، ووصف مَنْ يحاول ذلك بالكفر والمروق.. فالإنسان إما أن يكون مؤمنًا بحقٍّ، منتميًا لمنهج اللَّه، وإما ألا يكون على الإطلاق.. ذلك أن الانتماء لسلطتين في وقت واحد يعني بصراحة ووضوح الشرك باللَّه واتخاذ أنداد من دونه.. وهو أمر مرفوض جملة وتفصيلًا.. هذا إلى ما يحدثه الازدواج في الانتماء من تمزق خطير على مستوى الإنسان الفرد والجماعة البشرية على السواء..

إن التاريخ البشري كله هو مصداق لهذا التفتت والدمار الذي يتمخض أبدًا عن الشرك باللَّه، بهذا المعنى، وإن دعاة خرافة الفصل يريدونها انتقاءً كيفيًّا وازدواجًا في الانتماء، وشركًا باللَّه في نهاية المطاف..

إنه إما انتماء لمنهج اللَّه، وإما رفض له.. ويتهافت – من ثمّ – موقف أولئك الدعاة من أساسه، فليس ثمة موقف وسط على الإطلاق..

* * *
* *
*

(٦)

إن (الإسلام) هو الالتزام الديني الأخير والنهائي، وهو - لذلك - يتميز بالشمولية والامتداد ويتضمن جوهر الأديان السماوية التي سبقته على الطريق ومهدت له، ومعطياتها الحيوية (الدايناميكية) بعد إطراح سائر النسبيات التاريخية، وبعد هضم هذه المعطيات وتمثلها وصبغها (بصبغة) الدين الأخير.. وأي تصور، بعد هذا، أو محاولة لتصور نوع من التوازي أو التساوي الرياضي المطلق بين الإسلام وبين الأديان التي سبقته، إنما هو نكران صريح، ومرفوض، لتميّز هذا الدين (الإسلام)، وخصوصيته، وتفرده، ولـ (إلزامه).. وهو بالأحرى (لعبة) قد تكون دوافعها ساذجة بليدة أو ماكرة خبيثة لتجميد هذا الدين أو عزله أو شلّ فاعليته باسم موازاته مع الأديان السابقة وعدم التفريق بين ما أنزل اللّه.. وإنها للعبة يمارسها أدعياء خرافة فصل الدين عن الدولة لكي يوحوا للناس عامة وللمسلمين على وجه الخصوص بأن الأديان السابقة ما دامت - في تصورهم الخاطئ المستمد من انحرافات هذه الأديان وليس جوهرها الأصيل - قد فصلت بين الدين والحياة، وأعطت ما للّه للّه وما لقيصر لقيصر، فإن موازاة الإسلام بها ومساواته معها يمنح القناعة بأن شقيقها هذا يتوجب أن يترك - هو الآخر - ما للّه للّه وما لقيصر لقيصر.. هكذا بهذا

المنطق الساذج الماكر في الوقت نفسه.. على طريقة: إذا كانت الرياح الموسمية تسقط أمطارها في اليمن والصومال، وإذا كانت الهند تتلقى رياحًا موسمية.. فمعنى هذا أن اليمن والصومال تلتقيان مع الهند في مناخها جملة.. وربما في نظمها وعاداتها وتقاليدها!!

وإذا كان اللّٰه سبحانه، صاحب الشأن الأول والأخير في الدين، قد أصدر حكمه الحاسم الجازم بالتفريق المطلق الذي لا يقبل لجاجة ومناقشة وإنكارًا بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية الأخرى التي سبقته، رغم صدورها من منبع واحد.. فما شأن الإنسان؟

أَجَل.. ما شأن الإنسان؟!

* * *
* *
*

(٧)

قد نفهم تشبث الطواغيت بخرافة الفصل بين الدين والدولة؛ لأنها الباب الوحيد الذي يمكنهم من أن يظلوا هناك فوق الناس.. فوق الرقاب.. فوق القرناء والمنافسين.. آلهة متفردة تحكم بما تشتهي وما تريد، وتعطي ما تشتهي وما تريد، وتمنع ما تشتهي وما تريد.. ولكننا لا نفهم موقف هذا الحشد الكبير من الناس البسطاء المساكين الذين يصرون على التشبث بالخرافة فلا يزيدهم الإصرار والحماس إلا خضوعًا وعبودية واستسلامًا..

أهو الجهل والحماقة أن يختار الإنسان بمحض إرادته الدخول إلى حظائر الأغنام والنِّعاج ليكون واحدًا من القطيع؟ أم هو الإرهاب الذي يرغم المساكين، بالتلويح بالذبح، على التشبث بهذا التصور الخاطئ الذي لا يحقق لهم مصلحة ولا يضمن كرامة؟

أم ماذا؟

أما الكتاب والمثقفون الذين يسخِّرون أقلامهم لتأكيد الخرافة والدفاع عنها، فهم ولا ريب بين ضالٍّ أو جاحد تدفعه نفسه المُظْلِمَة، لا عقله المضيء، إلى مواقع الباطل، وهم قلة على كل حال، وبين صنيعة أو مأجور تغريه (النقود) فيمارس بيع الأفكار بالمزاد، ويمنحها لمن يدفع أكثر..

هنالك حيث يستوي - كما يقول أحد الشعراء المعاصرين - الفكر بالحذاء.. وما أكثرهم!!

* * *
* *
*

(٨)

إذا استخدمنا التعابير المعاصرة فإن الدين (استراتيجية) والسياسة (تكنيك) يخدم (الإستراتيجية) ويذلل الصعاب أمام أهدافها الكبرى..

الدين حركة والسياسة أداة..

الدين منهج عمل شامل والسياسة طرائق للتنفيذ..

وفي كل الأحوال لا نجد ثمة ما يدعو للفصل بين القطبين، بل على العكس، تحتِّم ضروراتُ التنفيذ والفعل والتحقق، التكامل بينهما..

إن (الدولة) ضرورة محتومة للدين إذا ما أُريد له أن يقول كلمته في العالم وينفذ برنامجه في الأرض..

وإن (الدين) ضرورة محتومة للدولة إذا ما أُريد لها أن تكون في صالح الإنسان من أجل عالم أفضل وغد سعيد.. هنالك حيث يتحرر الإنسان ويتحقق الوفاق المرتجى بينه وبين سنن الحياة والعالم والكون..

وإن الذين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة لا يفهمونَ في الدين ولا في الدولة ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

دعوة إلى الصعود

سذج هم أولئك الذين يتصورون الرجوع إلى مواقع الحق (رجعية) والتحرك صوب مواقع الباطل (تقدمية).. بالطريقة التي تحسب بها المسافات والمساحات.. أي بالمسطرة والفرجال..

سذج لأنهم لا يستطيعون إدراك أن الحياة أو أية تجربة فيها إنما هي أكثر عمقًا وتعقيدًا من أن تكون مجرد مساحة مسطحة تقاس بالسنتيمترات أو الأمتار..

وسذج لأنهم لم يفهموا البعد الحقيقي للحركة التاريخية، رغم وضوحه وبُعْده عن الخفاء.. إن مسار الأمم والجماعات والشعوب صوب الأحسن والأرقى - كان رهينًا دومًا بالالتفات إلى الوراء للتعلم من التجربة.. لدراسة مفردات الخطأ والصواب وفرزها من أجل تجاوز أكبر قدر من الأخطاء لحساب معطيات السلب والإيجاب للتحقق بعوامل الصحة والديمومة والعافية..

وإلا فإنه التهور والاندفاع الأعمى الذي يقود إلى البوار والدمار..

وما كانت الجهة التي تتحرك إليها القيادات التاريخية بمثابة تقدم إلى الأمام دومًا رغم أن هذه القيادات كانت تقول

هذا وتلح عليه وتصرخ به من أجل منح وجودها مبررات فلسفية تزيدها قدرة على البقاء والتسلط والطغيان..

كانت تقول هذا بحناجرها.. ولكن التاريخ كان في كثير من الأحيان يقول خلاف هذا بوقائعه الأكثر ثقلًا وإقناعًا..

وإلا فما الذي حدث بالنسبة لمسيرة النازية والفاشية؟ كان هتلر يقول أنه جاء بأمر من التاريخ لكي يقود بالعنصر الآري حركة العالم ويحمي حضارته ويكون وصيًّا عليها.. وكان موسوليني يؤكد حتمية رجوع روما لقيادة حضارة البحر المتوسط والتقدم بها إلى الأمام.. وكان يصرخ في خطاباته الملتهبة: « سنرفع راياتنا فوق النجوم » وقد وجد في فلسفة هيغل التي تعطي مبررات مطلقة لتصرفات (البطل)، مطيته المرتجاة.. كان هيغل يقول: « إن لمثل هؤلاء الرجال أن ينظروا إلى المصالح العظيمة الأخرى وحتى المقدسة منها بدون اكتراث، وذلك تصرف يعرض أصحابه إلى تأنيب الضمير، ولكن هذا الشكل ذا القوة الكبيرة لا بد أن يدوس الكثير من الأزهار البريئة ويحطم الكثير من الأشياء التي تقف في طريقه.. هؤلاء العظماء وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير وأعمالهم تحمل ختم المصير المطلق المتعالي ».. ومع تبرير تصرفات البطل كان هناك تبرير فلسفي موازٍ لتصرفات الدولة.. وموسوليني كان يكشف عما في قلب هيغل حينما كان يتحدث عن الدولة « إن

الدولة هي المطلق حين تقارن بكل الأفراد أو الجماعات، إن توسع الأمة عرضٌ جوهري للحيوية، ونقيضه هو علامة التردي والانحطاط ».. لقد كانت الدولة بالنسبة لهيغل قانونًا بذاتها.. « إنها العقل المطلق الواثق من نفسه الذي لا يعترف بأية سلطة سوى سلطته والذي لا يقر بأية قواعد مجردة للخير والشر، والمخجل والوضيع، والاحتيال والخديعة » وهكذا فإن اللجوء إلى كل أنواع الوسائل مهما كانت مُنافية للأخلاق يُعتبر أمرًا مشروعًا إذا كان من أجل الدولة، إن الفاشية هي الطفل السياسي الذي أنجبته (ديالكتيكية هيغل)[١].

وماذا كانت النتيجة؟

إنه من خلال مطرقة (البطل) وسندان (الدولة).. من خلال اعتماد العنف المتشنج والتحقق اللاأخلاقي بالقوة للإعلان عن (العرض الجوهري للحيوية) وتجاوز نقيضه (الذي هو علامة التردي والانحطاط).. من خلال هذا وذاك لحِق الدمار الذي يعرفه الجميع بالإنسان وبحضارته على السواء.. ولم يكن الأمر في جانبيه تقدمًا بأي شكل من الأشكال..

والاستعمار القديم نفسه كان يجد من الفلاسفة والمفكرين من يبرره ويمنحه الخلفية الفكرية ويصوره حركة حضارية تقدمية يتولاها وينفذها الرجل الغربي الأبيض إزاء العالم

---

(١) انظر بالتفصيل: عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص٦٨ - ٨٢)، (ترجمة كاظم الجوادي، الدار الكويتية للطباعة والنشر).

كله.. ونعرف جميعًا ماذا فعل الاستعمار وكيف تعامل مع الشعوب والبلدان التي غزاها واستعمرها.. ونعرف كذلك الدمار الشامل الذي ألحقه بها على كل المستويات.

أهي حركة تقدمية.. بمجرد أن يعلن مؤيدوها والمنتفعون بها هدفها التقدمي فيخدعوا بها جماهير الناس؟

وماذا بصدد الاستعمار الجديد بجناحيه الغربي والشرقي؟

لن يكون على صورتيه بأكثر من عملية (تسخير) تريد بها أمريكا وروسيا تحقيق المزيد من الكسب، والتحصن بمزيد من عوامل القوة والنمو والديمومة..

وقد بلغ من انكشاف العملية أن امتدت مسألة التسخير هذه حتى إلى دائرة الحلفاء أنفسهم.. الأمر الذي ولد سلسلة يعرفها الجميع من الأفعال وردود الأفعال بين القطبين الكبيرين وبين توابعهما الصغار (المسخرين).. وكلنا يعرف محاولات الهيمنة والاستنزاف التي سلّطتها أمريكا على دول أوربا الغربية وتكتل الأخيرة بمواجهة عملية الاحتواء، ويعرف - كذلك - محاولات التذويب والإذلال والامتصاص التي مارستها ولا تزال روسيا الشيوعية إزاء حليفاتها في أوربا الشرقية، وانتفاضات هذه بمواجهة التسلط الروسي.. في يوغسلافيا.. في المجر.. في تشيكوسلوفاكيا.. في رومانيا.. في بولندة..

وأمريكا وروسيا كانتا تعلنان في كل الأحوال أن ما تفعلانه

وتطمحان إليه لا يعدو أن يكون تنفيذًا أمينًا لمطالب التاريخ وضرورات التقدم الحضاري.. إياها!!

في يوم ما كان المغول والقوط والهون والفايكنغ والوندال والصليبيون أيضًا يتقدمون لاكتساح العالم.. وخفقت راياتهم في مساحات واسعة من آسيا وأوربا.. ولكن اندفاعاتهم تلك ما كانت تقدمًا.. ما كانت سوى الخراب والدمار الذي حاق بدول وحضارات كانت قد تألقت يومًا، وحققت للعالم - فعلًا - خطوات تقدمية واسعة صوب الأمام..

وإذا أخذنا برأي القائلين بأن الزمن يطرح عبر صيرورته الدائمة مذاهب وفلسفات ورؤى أكثر تقدمية ونضجًا من تلك التي سبقتها.. إذا أخذنا بهذا الرأي لم يبق هناك مذهب واحد على الأرض، وفلسفة واحدة في أنحاء العالم إلا ويحكم عليها بالرجعية؛ لأنها ستغدو بمُضي الزمن في حيز الماضي وسوف تبرز إلى الوجود مذاهب وفلسفات أكثر حداثة.. هاهنا تصبح المادية الديالكتيكية نفسها عقيدة رجعية بعد إذ مضى عليها أكثر من قرن من الزمن ظهرت عبره عشرات، بل مئات من المذاهب والعقائد والفلسفات والأفكار..

من خلال هذه النسبية الساذجة لن يتبقى هناك شيء يستحق الالتزام، ويقتلع الإنسان من جذوره.. يفقد وزنه الحقيقي وارتباطه بجاذبية الأرض، ويظل معلقًا في الفضاء.. يدور بعينيه كالأبله بمواجهة شاشة الزمن؛ حيث يلفّ شريط

القدم والحدوث، وحيث تغدو أشد المعطيات حداثة.. أمرًا قديمًا.. بعد ساعة أو سنة أو عقد.. أو قرن من الزمان!!

وعلى سبيل المثال « .. فإن ماركس ولينين يعيبان التمسك بالدين ويصفانه (بالرجعية) أي رجوع للخلف والوراء مع أن صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ولا بمشاكل لا تتكرر؛ إذ هو للطبيعة البشرية بما لها من خصائص أينما وجدت وفي أيِّ وقتٍ كانت، وهدفه أن يحول دون الانحراف في السلوك سواء في المال أو في العلاقات البشرية، بينما ارتبطت الفلسفة الماركسية بمشاكل اقتصادية معينة وأوضاع اجتماعية معروفة خلقتها ظروف خاصة ليس لها طابع الاستمرار وهي ظروف القرن التاسع عشر والثورة الصناعية التي تبدلت تمامًا في القرن العشرين، أفلا يوصف ذلك الذي ينادي بالماركسية اللينينية، وقد اختلفت الأوضاع والظروف الآن، بأنه رجعي وأنه يريد أن يعيد عجلة القرن العشرين إلى القرن التاسع عشر؟ إن الماركسي (التقدمي) يعيش في صورة الأمس بعد أن حجب عينيه بالتعصب البغيض لاتجاه فلسفي انتهى اعتباره، عن رؤية التغيير الذي يحدد صورة اليوم والذي سيحدد صورة الغد »[1].

وإذا ما أردنا أن نقرِّب المسألة لهؤلاء السذج واعتمدنا

---

(١) د. محمد البهي: تهافت الفكر المادي التاريخي (ص٣٤ - ٣٦)، (دار الفكر - بيروت).

منطق التشبيه بالمنظور والملموس؛ لأنهم لا يستطيعون إدراك المجردات الذهنية على ما يبدو، قلنا بأن نزول جبل ما للوصول إلى هدف يكمن في قلب الوادي ربما يمثل تقدمًا لتحقيق مكسب ما، وهو أمر سهل إلى حدٍّ كبير، ولكن محاولة تسلق الجبل ثانية لدى مداهمة خطر ما للتحصن به ضد عوامل السلب والإفناء.. أمر أكثر صعوبة بكثير.. ولن يقدر عليه إلا الذين أوتوا حظًّا من القوة والإرادة والعزم على المضي صوب الخلاص بأي ثمن كان..

إن العودة لتسلق الجبل ليست رجوعًا إلى الوراء.. ولكنها في حقيقتها تقدم من أجل التحصن والمقاومة ومجابهة تحديات الفناء..

ولقد كان الإسلام وسيظل هذا الجبل الذي يعصم الأمم والجماعات والشعوب من فيضانات الفساد والخراب والتفكك والتعاسة والشقاء.. تلك الجماعات التي انساقت يومًا وراء هذا الزعيم أو ذاك، واندفعت، بنداءاته المُغرية التي تعرف (الفلسفة) كيف تغطي ما تتضمنه من زيف وخداع، صوب أهداف بدت للوهلة الأولى تقدمية.. ولكنها ما لبثت أن تكشّفت عن السراب.. قالوا لها: انظري.. هنالك.. صوب الوادي.. حيث الجنات الخضر والنعيم المقيم.. فهرعت إلى حيث أشار هؤلاء، وغادرت مواقعها السامقة في الجبال المنيعة.. و (انحدرت) صوب الجنة الموهومة فلم تجد

شيئًا.. وإذ أحاطت بها الذئاب من كل جانب ونادى أبناؤها المخلصون ألا منجى لها إلا بالرجوع إلى الجبل.. بالصعود إلى قممه بالأحرى.. تصور بعض الناس لسذاجتهم أو صوّر لهم شياطين الإنس، لضمان مصلحة ما، أن محاولتهم هذه لا تعدو أن تكون (رجعية) قد لا تصل بهم إلى ما يحبونه ويبتغونه..

تلك هي لعبة المكر والسذاجة..

وقد آن للإنسان المسلم أن يعي أبعاد اللعبة وألا تخدعه بعض المصطلحات التي وجّهها الحواة والدجّالون غير وجهتها ونفخوا فيها روحًا غير روحها..

إن الجبل السامق ينادينا أن نصعد إليه ثانية.. أن نشد العزم ونشحذ الهمم ونتوكل على اللَّه.. ونتحرك صوب المرتقى الصعب.. وإلا أكلتنا ذئاب العالم التي ما تداعت علينا يومًا كما تتداعى علينا هذه الأيام.. وغدونا قصعة يُولم عليها الجوعى والطامعون..

إن جماعة أو أمة لا تعرف كيف تحمي نفسها من عوامل الإبادة والتفكك والإفناء أحرى بها ألا تكون..

فهي بين أن يراد لها هذا لكي يُولم عليها فتكون قد أرادت العمى، وبين أن تختار هذا بنفسها فتكون قد آثرت الانتحار..

ولن تكون لعبة المصطلحات بقادرة على أن تطمس على أعيننا بشاعة العاقبة وهول المصير المفجع..

ويظل (الجبل) يدعونا أن نرتقي إليه.. إذا أردنا البقاء.. فإنه لا عاصم لنا من أمر اللَّه.. إلا أمر اللَّه..

* * *
* *
*

الكاريكاتير القرآني

نعم.. وإن في القرآن لعشرات من الصور والعروض (الكاريكاتيرية) يرسمها كتاب اللّٰه على طريقته الفنية المعجزة، بكلمات قلائل لا تعدو أصابع اليد الواحدة.. كلمات قلائل ولكنها تمنحنا بضرباتها المركزة، المرسومة، النقائض الأساسية في الموقف البشري، فتجسدها لنا كما لو كانت رسمًا أو نحتًا!!

فلنعاين بعضًا من هذه الصور..

(١)

يقول فرعون لأتباعه:

﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]

فكأن أنظار الناس جميعًا، ممن ابتلوا بحكم فرعون وألوهيته المزيفة، لا يسمح لها بالعمل إلا بعد أن تستحصل جواز مرور إلى العالم في عيني الفرعون نفسه.. ما يراه تراه.. أو بعبارة أوضح: ما يريد لها أن تراه.. تراه.. وما لا يريد.. لا تراه.. ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾!!

فإذا ما تذكرنا أن الرؤية هاهنا لا يعني بها المشاهدة الخارجية للأشياء.. أي النظر فحسب، ولكنها تعني ما يعقب الرؤية من اتخاذ موقف شخصي إزاء الأشياء والأحداث، تُمليه العاطفة أو الهوى أو المصلحة أو الوجدان أو الظن أو التخمين.. أدركنا أن فرعون يريد أن يقول للناس: إن عليكم ألا تفكروا وتتخذوا مواقفكم، وتختاروا، إلا من خلالي.. من خلال ما أفكر به وما أتخذه وما أختاره.. وبعبارة أخرى: إن عليكم أن تجمدوا فكركم، وأن تكفوا عن اتخاذ المواقف، وأن تتوقفوا حالًا عن الاختيار.. لأنني.. أنا.. فرعون.. ربكم الأعلى.. أنا الذي سأفكر لكم، وأرسم لكم المواقف، وأنا الذي سأختار لكم ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

وسواء أكان فرعون مقتنعًا بصواب ما يدعو إليه، ويرغمهم عليه، أم غير مقتنع، فالأمر سواء.. والمهم أن عليهم ألا يروا ويفكروا ويختاروا إلا من خلاله.. وبه..

أثمة أكثر وضوحًا في خطوط الصورة، لو رُسمت بالألوان، أو نُحتت على المعادن والصخور، من هذه الكلمات؟ إنها تجعلنا نحزن على ما مُني به أتباع فرعون وكل فرعون من عبودية مطلقة وإذلال كامل، تمسخ فيه إنسانية الإنسان ويطمس على عقله وإرادته ووجدانه، ولا يتبقى منه إلا أجهزة حسية، من بصر وسمع ولمس، يستخدمها الطغيان، أدوات فحسب لتمرير رؤيته.. وتنفيذها!!

وتجعلنا نضحك ، في الوقت نفسه، والسخرية هي بداية الرفض ونهايته أيضًا، من الصيغة التي يريد أن يتحقق بها الدكتاتور.. في كل زمان ومكان، كما يرسمها لنا الكاريكاتير القرآني:

تقف أمة بكاملها، وقد استُؤصل أبناؤها - بطريقة ما - عقولهم وإرادتهم ورؤيتهم الخاصة، وطمسوا على معالم شخصيتهم.. تقف طوابير، بصمت مطبق، وكأن على رؤوسها الطير.. وواحدًا إثر واحد يتقدم إلى سدة فرعون.. ينحني انحناءة كاملة ثم يتلقى الأمر بأن يفعل كذا ولا يفعل كذا.. تنفيذًا حرفيًا لأمر الطاغية.. ينسحب، بعد انحناءة أخرى، ويذهب إلى مهمته..

يتقدم الآخر.. لكي يريه الفرعون ما يرى.. ويهديه إلى سبيل الرشاد!! وهكذا حتى نهاية الطابور..

وتتكرر العملية كلما أحبت جماعة من المواطنين أن تفكر في شيء أو تُقدم على فعل شيء..

لا بد أن يقف كل واحد منها في مكانه من الطابور.. وينتظر دوره!!

* * *
* *
*

(٢)

﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ ﴾ [الزخرف: ٥٤]

انظروا: ها هي أمة بكاملها تفقد القدرة على الرؤية، وتُستلب إرادتها، وتمحى الملامح الشخصية لكل واحد من أبنائها.. تستلّ من تكوينهم أفكارهم، ومطامحهم، وأحلامهم، تمسح حتى بصمات أصابعهم.. لا يتبقى لهم أيّما وجود متميز.. فيفقدون ثقلهم، ويخف وزنهم بالتالي..

وإنها لصورة تجسم السخرية بالكلمة.. حتى لنكاد نلمس شخوصها ونرى حركتهم رأي العين: الخفة والارتفاع في الهواء، كأن ليس لهم أي ثقل يتعاملون به مع جاذبية الأرض.. ومع الخفة تأرجُحٌ ذات اليمين وذات الشمال.. لا يستقرون على شيء.. وبإشارة من فرعون الطاغية، يتحركون كيفما يشاء هو لا ما يشاءون هم.. يُذعنون ويُطيعون لكل أمر يصدره إليهم، ويتجهون حيثما مدّ أصبعه..

ونتصور الطاغية وهو يجلس منتفخًا على عرشه يلعب على أمته، أو بالأحرى يلعب بها.. بسهولة ومقدرة تثير الإعجاب.. إلى اليمين فتندفع إلى هناك.. يسار، فتتحول صوب اليسار.. وقوفًا، فتتجمد في أماكنها.. لا يكلفه ذلك أي جهد حقيقي فهي أخف وزنًا من أن تكلفه شيئًا.. ليس ثمة أي ثقل في عقولها وأفئدتها.. لقد بذل جهده الصعب

يوم قام (بعملية) استئصال الوزن وتبديده.. أما وقد نجحت العملية واستخف قومه، فإن طاعتهم العمياء مسألة غاية في السهولة، وهي تأتي جزاءً وفاقًا على الجهد الشاق الذي بذله أول مرة..

ولو لم يكن هؤلاء يملكون الاستعداد للتضحية بثقلهم الحقيقي رغبًا أو رهبًا، لو لم تكن شخصية كل واحد منهم على درجة محزنة من التفكك والضعف والهزال.. لو لم يكونوا قد اختاروا ألا يكون لهم أيما موقف أو رأي أو وجهة نظر في أية قضية أو مشكلة.. لما استطاع فرعون أن يسوقهم إلى هذا المصير المخزي.. ولما استخفهم، أو استخف بهم، هذا الاستخفاف!!

أَمَا وقد امتلكوا الاستعداد للأمر.. فإن فرعون عَرِفَ كيف يجردهم من كل ثقل، ويحيلهم إلى أصفارٍ لا تتضمن أية قيمة إيجابية.. وأن يفعل بهم ما يشاء..

﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ.. ﴾ إنها كلمات ثلاث، ولكن اللوحة التي ترسمها بالأحرف تظل شاخصة على مدى الأبصار؛ لأنها تتضمن صيغة (كاريكاتيرية) تعرف كيف تجسد الموقف وتبرز عيوبه وتناقضاته بالخطوط والظلال والألوان، فتجعلنا نضحك منه ونرثي له..

* * *
* *
*

(٣)

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]

لكأنما يأتي النداء من فوق.. من قدرة فوق قدرة الإنسان، ورؤية فوق رؤية الإنسان.. تنظر إلى وادي النمل البشري فترى واحدة منها تتضخم وتتضخم وتنتعش وتتطاول.. ثم ماذا تكون؟!

وما تلبث اللطمة القاسية، اللطمة الساخرة، أن تنقض، على الخد المتصعر.. على الرأس المتطاول.. على الجسد المتمطي.. لكي تلفت الطاغية، الذي يتحرك عند أسفل جدار في العالم، إلى حجمه الحقيقي، وتعرف طوابير الأقزام المخدوعين به، الذين خُيِّل إليهم - لضآلتهم وحقارتهم - أنه فعلًا يملك القدرة على أن يمتد بطوله صوب السماء، وأن يستعلي عليهم وهم يتحركون كالحشرات عند أقدامه.. تعرفهم بهذا الذي خدعوا به..

إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولًا.. وماذا يكون الإنسان.. أكبر إنسان في العالم.. أكثر الناس انتفاخًا وتضخمًا وامتدادًا وتطاولًا.. ماذا يكون إزاء طول الجبال وشموخها.. وعمق الأرض وأغوارها السحيقة؛ لا شيء.. لا شيء..

إن الصورة تسمّر أنظارنا على هذا المشهد المترع بالسخرية والجهل والغباء والاحتقار مشهد الإنسان الطاغية وهو يقف قبالة واحد من جبال العالم.. يتطاول فلا يعدو إحدى حجارته الملقاة على السفح ، يمد جسده ويمطيه إلى آخر نقطة يستطيع فيها جسده أن يبلغها طولًا.. فلا يتجاوز صخرة تافهة أسقطتها الأعاصير من هذا الجانب أو ذاك من واجهة الجبل فلم تحدث فيه إلا كما تنقص قطرة الماء المتبخرة عن البحر الكبير.. ومصيبة أتباعه أنهم – لما يعانونه من قزمية – ينظرون إليه وحده معجبين بامتداده، ولا ينظرون إلى الجبل نفسه.. ربما لأنهم لا يرون إلا طاغيتهم وحده.. وربما لأنهم يخافون أن يلتفتوا عنه إلى أي شيء آخر غيره، وبخاصة إذا كان الالتفات لغرض المقارنة.. وربما لأنه قد استلب حريتهم وقدرتهم على الحركة والالتفات.. وربما لأنه أترع قلوبهم وعقولهم بالخوف والرعب، وأفقدهم أية قدرة على القيام بحركة ذاتية متصورين أن أية مقارنة بينه وبين أي شيء آخر إنما هي خروج عن أمره وتمرد على ربوبيته..

ولكننا – نحن – ننظر إلى الصورة القرآنية المؤثرة من الخارج فنرى الطاغية ونرى الجبل، نرى طول هذا ونرى ارتفاع ذاك.. تطاول هذا وشموخ ذاك.. فلا نعاين إزاء كتلة الجبل الهائلة سوى شيء لا يكاد يُرى.. كتلة صغيرة تافهة ملقاة عند أسفل الجبل فأنى لها الطموح إلى أن تسامت

الجبل يومًا وتبلغ طوله؟ إنها مسألة مستحيلة كاستحالة دخول الجمل في سمِّ الخياط.. مبهظة ثقيلة قاسية؛ لأنها كالكابوس لا يمكن أن تتمخض عن أية نتيجة حتى لو مضى عليها ملايين السنين من المط والتطاول، فكيف وعمر الإنسان لا يعدو الخمسين أو الستين؟!

ونراه.. الطاغية.. وهو يضرب بأقدامه الأرض.. بعد إذ أدرك عجزه عن موازاة الجبل.. يضربها بعنف وعصبية، محاولًا خرقها وتفتيت قشرتها الصُّلبة.. ولن يستطيع..

وأتباعه الأقزام، داخل الصورة، ينظرون إليه معجبين، وقد سمرت عيونهم وعقولهم بجسده العملاق، وهو يتطاول ويتطاول، وبأقدامه القوية وهي تضرب الأرض.. فما يزدادون إلا تضاؤلًا وإعجابًا!!

وننظر نحن من خارج الصورة، فيأخذنا المنظر المؤثر ويجعلنا نضحك على تفاهة الإنسان ونبكي لمأساته.. فهو التناقض القاسي الذي يُضحك ويُبكي!

* * *
* *
*

(٤)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت: ٢٩]

إذن.. فقد انكشفت اللعبة وتمزقت الأستار.. وأية لعبة لا تتكشف يوم الحساب؟ ها هم الطغاة.. والأرباب.. والمتألهون.. والفراعنة.. يقفون طوابير على حافة جهنم.. خاشعين، ناكسي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء!! يقفون منتظرين دورهم في الدخول إلى حيث يكتوون بالنار التي لم يوقفهم لهيبها وسعارها عن ممارسة ألوهيتهم هناك، يوم كانوا يسرحون في الأرض ويمرحون.. يقفون الآن وهم يرتجفون خوفًا وهلعًا.. إنهم بعد دقائق أو لحظات سيؤخذون من نواصيهم التي تطاولت على اللَّه سبحانه كذبًا وغرورًا، ويجرون من أقدامهم التي مشوا بها طويلًا على رؤوس العباد.. ويرمى بهم في النار التي ازداد تلمظها وهي ترى هذا الصيد الثمين يقف على بُعْد خطوات!!

ومن الصف الطويل، يقفز بين الحين والحين، أُناس لا نكاد نراهم ونميزهم إلا بصعوبة.. إنهم أصغر حجمًا بكثير من هؤلاء الأرباب، وهم مضغوطون إلى درجة لا يكادون يرون معها لكثرة ما مارسوه هناك في الحياة الدنيا

من خوف وجبن وملق ونفاق وصغار والتصاق بالطغيان.. يتقافزون من هنا وهناك، مُنادين بأصوات لا تكاد تسمع هي الأخرى: ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ [فصلت: ٢٩]!!

وإنه لمنظر مضحك حقًّا.. وإن الإنسان ليظل يضحك حتى تدمع عيناه.. وهو يرى إلى هؤلاء الأقزام يتقافزون بين أقدام الأرباب، فالناس - أغلب الظن - محشورون حسب أوزانهم؟! ولكن الذي أطمع هؤلاء الأتباع المتضائلين بسادتهم وجعلهم يطلبون هذا الأمر المضحك: أن يجعلوا هؤلاء السادة من الأرباب والطواغيت تحت أقدامهم، وهم على ما هم عليه من ضخامة وامتلاء.. ما رأوه على هؤلاء من هلع وذلة وانكسار وخوف، سرت قشعريرته الباردة الصفراء إلى عروقهم فأخذوا يهتزون ويرتجفون.. رغم أنهم قريبون من لفح النار!!

إذن فهؤلاء هم السادة الكبار.. هؤلاء هم الآلهة والأرباب.. لقد تبددت الكبرياء.. وضاع الجبروت.. وها هم يرتجفون بأسمالهم التي تفوح منها رائحة الزفت والقطران.. ويحيطهم الخزي، وتكتسحهم المذلة..

وإنها لفرصة نادرة لأتباعهم الصغار أن يتمردوا عليهم وأن يطلقوا سراح حشود من المشاعر والأحاسيس والانفعالات كانت قد احتبست في طبقات بعيدة من نفوسهم يوم كانوا

يمارسون مهنة العبودية والفناء في ذوات أسيادهم.. وهم يريدون الآن أن يكثفوا مقتهم وغضبهم بحركة ذات دلالة: أن يجعلوا أولئكم السادة تحت أقدامهم!!

ولكن رؤيتهم التي فقدت قدرتها على الإبصار في الحياة الدنيا ، تصيبهم الآن ببعض العناء، وسط دخان النار وهول الحساب، فلا يكادون يرون مرة أخرى آلهتهم وأسيادهم على طولها وامتدادها، فيكون نداؤهم المضحك ذاك: ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت: ٢٩]!!

ويظل نداؤهم ذاك معلقًا دون جواب.. فهم أتفه وأحقر من أن يستجاب لندائهم.. من أن يُرد عليهم مجرد ردّ.. ولو بالنفي!! وتلك لفتة مقصودة في كتاب اللّه.. تستكمل بها الصورة (الكاريكاتيرية) ونحن نتخيلُ هؤلاء.. بل نراهم ونسمعهم يرفعون النداء تلو النداء.. فلا يرد عليهم أحد!!

* * *
* *
*

(٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]

إنَّ القرآن الكريم - هنا - يتعمد أن يختار أصغر الحشرات وأحطها شأنًا، لكي يضرب بها المثل ويتحدى طواغيت بني آدم وآلهتهم وأربابهم وأكبرهم حجمًا، أن يخلقوا مثلها: الذباب!!

إنه يذهب في تجسيم التناقض، وَفْق الأسلوب (الكاريكاتيري) إلى حده الأقصى لكي يهز الناس ويضحكهم في الوقت نفسه!!

فهنا يطرح القرآن نداءه المتحدي، الساخر: أيها الأرباب الذين رفعوا قاماتهم إلى السماء، يريدون أن يخرقوا الأرض وأن يبلغوا الجبال طولًا.. أيتها الآلهة التي ورمت غرورًا فجاوزت حجمها الحقيقي مئات المرات.. أيها الوضاعون الذين يحتكرون المعرفة العليا لأنفسهم فيفكرون للناس ويُشرِّعون لهم..

ها أنا ذا أتحداكم.. أن تخلقوا بعوضًا أو ذبابًا.. أكثر من ذلك، أتحداكم أن تستردوا هباءة تافهة سلبكم الذباب إياها..

أيها الأرباب، أيتها الآلهة، أيها الوضاعون.. اخلقوا - إن استطعتم مجتمعين - ذبابًا.. استردوا منه ما سلبكم إياه.. ضعف الطالب، أيها الأرباب، والمطلوب.. ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]...

إن القرآن الكريم، ها هنا، لا يضحكنا فحسب، ولكنه يبكينا.. يقينًا.. إنه ينتزع الدموع من أعيننا..

ونعرف.. ونحن نتقلب بين الضحك والبكاء.. لماذا اختار اللّٰه - جل وعلا -، أن يتحدى الآلهة والأرباب.. بالبعوض والذباب!!

* * *
* *
*

عن العالم في تاريخنا

(١)

(العالم) في تاريخنا هو الرجل الثوري، هو قطب المعارضة وداعية التغيير، هو حامل المسؤولية أمام اللّٰه والجماهير..

ونسمع دائمًا عبارة (سكوت العلماء) وهي تتصادى عبر هذا التاريخ حاملة دلالتها الخطيرة على دور هذه الطليعة الرائدة، وعلى ما يمكن أن يتمخض عنه إيجابيًّا أو سلبيًّا..

لقد كان صلاح المجتمعات الإسلامية أو فسادها مرهونًا بأسباب عدة، وكان موقف العلماء واحدًا من أهم وأكبر هذه الأسباب..

ويستطيع المرء بمجرد قراءة سريعة في التاريخ أو استعراض عابر لحشود العلماء الذين تحدثت عنهم كتب التراجم - أن يتأكد من حجم هذا الدور وأن يلتقي برجال لعبوا دورهم بمستوى مسؤوليتهم ووقفوا بمواجهة السلطة ناقدين معترضين مقومين الاعوجاج بالكلمة، وبالسيف حتى، إذا اقتضى الأمر..

* * *
* *
*

(٢)

أبو حنيفة اعتُقل، وأنس بن مالك ضُرِب بالسياط، وأحمد ابن حنبل اضطهد وعذب، وابن تيمية سجن.. وانتهى الأمر بعدد آخر من العلماء إلى النفي من الأرض.. والقتل.

ولم يكن هؤلاء العلماء يعملون في الفراغ، كانوا يملكون فكرًا قويًا وكلمة مؤثرة استمدوها من العقيدة التي حملوا مسؤوليتها، فالتفت حولهم جماهير الناس، وسمع بهم الداني والقاصي فقصدوهم ووضعوا أنفسهم وعقولهم تحت تصرفهم..

وكان الرجل منهم يملك بإشارة واحدة أن يحرك هذه الجماهير صوب الهدف من أجل إيقاف باطل وإحقاق حق..

كان ابن حنبل يحرك جماهير سامراء لمجابهة السلطة بكلمة واحدة تصدر عنه.. واستطاع سبط ابن الجوزي أن يحشد جيشًا من الشاميين لقتال الصليبيين وأن يدفع الناس لتقديم كل ما عندهم، والنسوة اللواتي لا يملكن شيئًا إلا قص شعورهن وتقديمها لُجُمًا للخيول الغازية بقيادة الرجل.. وخرج ابن تيمية على رأس حشد من المتطوعين لقتال المغول.. وذهب العز بن عبد السلام إلى مصر لكي يبيع سلاطينها ويعيد الأموال العامة إلى الأمة، حتى إذا قرر أحدهم نفيه من الأرض خرجت وراءه جماهير المصريين فعاد لكي يرغم السلطان على قبول رأيه!!!

ومواقف أخرى كثيرة معروفة وقفها (العالم) عبر تاريخنا الطويل.. وإن المرء ليذكر بإعجابٍ تلك الواقعة التي هي أشبه بالكاريكاتير المؤثر: دخل أحد السلاطين جامع بني أمية في دمشق.. كان ثمة عالم يجلس هناك، مادًّا رجله.. لم يكترث لدخول السلطان، ولم يكلف نفسه حتى عناء سحب رجله.. أراد السلطان أن يشتري احترامه فبعث إليه بعد قليل صرة من الدنانير مع أحد أمرائه.. رفض العالم استلامها قائلًا: من لا يسحب رجله أمام السلطان لا يمدَ يده إليه!

وفي معظم الأحيان كان العالِم يتربع المكان الأعلى ويرفض الدنية حتى ولو كانت نزوله درجة واحدة في السُّلَّم العالي.. وحتى ولو كان هذا النزول ضرورة قد يمليها حضور ملك أو سلطان..

وقد قدّر بعض هؤلاء الحكام الأمر قدره فأعانوا عليه، وأتاحوا للعالِم أن يظل هناك في القمة..

ثمة رواية مؤثرة أخرى أشبه بالكاريكاتير أيضًا: كان الخليفة هارون الرشيد يتمشى مع أحد العلماء، وفجأة سحب يده بعصبية، كمن كان قد اقترف خطأ ما وانتبه إليه على حين غرة.

فوجئ العالم بحركة الخليفة فلما رأى هذا ملامح الدهشة المتسائلة على وجه العالم قال: لقد كانت يدي، لدقائق، فوق يدك.. وما هكذا يجب أن تكون.. إن يد العالِم لا تعلوها إلا يد اللّه!

(٣)

ولا يدري المرء كيف تحول الكثير من العلماء في العصور الأخيرة وبقدرة قادر لكي ينزلوا درجات السُّلَّم ويقفوا هناك عند آخر درجة فيه مرتضين الدّنية والهوان.

لا يدري كيف تحول هؤلاء إلى أدوات بأيدي الحكام.. مجرد وسائل يستخدمونها لتعزيز سلطتهم وإلقاء رداء الشرعية والقبول على وجهها القبيح.

لا يدري كيف أصبح العالِمُ ندًّا لرجل الدين الغربي، لا يعرف إلا ممارسة شعائره ولا يؤدي إلا فروض الطاعة والاحترام..

نَسِيَ الرجلان كلمة (لا) فكأنها غير مستعملة في لغات العَالَمِ ولا مكتوبة في القواميس.. إذن فلنرجع إلى وقائع التاريخ كرّة أخرى لكي يتأكد لهم أن أجدادهم قالوها بوجه الحكام وتحدثوا عن الحقيقة كما هي، كما يريدها اللَّه ورسوله والضمير المسلم النقي، لا كما يريدها الحكام مُغطاة بألف قناع!

* * *
* *
*

(٤)

دخل أبو بكرة ﷺ على الخليفة الأموي معاوية ابن أبي سفيان ﷺ فقال: « اتق اللَّه يا معاوية واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك، وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بُعْدًا، ومن الآخرة إلا قربًا، وعلى إثرك طالب لا تفوته وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم وما أوشك أن يلحقك الطالب، وأنا وما نحن فيه وأنت زائل، والذي نحن صائرون إليه باقٍ إن خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشرًّا »[١].

ودخل أبو مسلم الخولاني على معاوية فقال له: « ما اسمك؟ فقال: اسمي معاوية. قال: لا بل اسمك أحدوثة فإن جئت بشيء فلك شيء، وإن لم تأتِ بشيء فلا شيء لك يا معاوية.. إن عملت خيرًا جُزيت به وإن عملت شرًّا جُزيت به. يا معاوية إن عدلت على أهل الأرض جميعًا ثم جُرت على رجل واحد مالَ جورك بعدلك »[٢].

* * *
* *
*

(١) أبو الفرج بن الجوزي: المصباح المضيء في خلافة المستضيء (٢/ ٣٨، ٣٩)، تحقيق: ناجية عبد اللَّـه إبراهيم، وزارة الأوقاف، بغداد (١٩٧٧م).
(٢) نفسه (٢/ ٤٠، ٤١).

(٥)

ونظر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك يومًا إلى رجل يطوف بالكعبة له كمال وتمام فسأل عنه فقيل له: هذا طاوس بن كيسان اليماني وقد أدرك عدة من الصحابة فأرسل إليه سليمان فأتاه فقال: « لو ما حدثتنا، فقال: حدثني أبو موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن أهون الخلق على الله من وَلِي من أمر المسلمين شيئًا فلم يعدل فيهم** ». فتغير وجه سليمان طويلًا ثم رفع رأسه فقال: لو ما حدثتنا. فقال: حدثني ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله ﷻ ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [البقرة: ٢٨١] »[١].

وحج سليمان بن عبد الملك، مرة، ومعه العالم المعروف رجاء بن حيوة، فلما قدم مكة قال: إن ها هنا رجلًا فأرسل إليه يحدثك يقال له طاوس، فأرسل إليه فجاءه فدخل عليه فجلس فسكت وسكتوا ثم قال: « أتدرون من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؟ قالوا: لا، قال: عبد أشركه الله في ملكه فجار في حكمه! فاستلقى سليمان على فراشه وقام طاوس. قال رجاء: وأظلم عليّ البيت خوفًا على طاوس حتى توارى »[٢].

وقال سفيان الثوري « أُدخلت على أبي جعفر المنصور – الخليفة العباسي – بمنى فقلت له: اتقِ الله، فإنما أُنزلت هذه

---

(١) أبو الفرج بن الجوزي: المصباح المضيء في خلافة المستضيء (٢/ ٥٤، ٥٥).
(٢) المرجع السابق (٢/ ٥٦).

المنزلة وصرت بهذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعًا، حجّ عمر بن الخطاب فما أنفق إلا خمسة عشر دينارًا، وكان ينزل تحت الشجر.

فقال لي أبو جعفر: أتريد أن أكون مثلك؟

قلت: لا تكن مثلي ولكن كُن دون ما أنت فيه وفوق ما أنا فيه، فقال لي: اخرج »[١].

وقال عباد بن كثير لسفيان الثوري: « قلت لأبي جعفر المنصور حدثني عن الأموال التي اصطفيتموها من أموال بني أمية، فواللَّه لئن كانت صارت إليهم ظلمًا وغصبًا لما رددتموها إلى أهلها الذين ظلموا وغصبوا، ولئن كانت الأموال لهم لقد أخذتم ما لا يحل وما لا يطيب إذا دُعِيَتْ يوم القيامة بنو أمية بالعدل جاءوا بعمر بن عبد العزيز فإذا دعيتم أنتم بالعدل وأنتم أمسّ رحمًا برسول اللَّه ﷺ لم تجيئوا بأحد، فكن أنت ذلك الأحد، قد مضت من خلافتك ست عشرة سنة وما رأيت خليفة قبلك بلغ اثنتين وعشرين سنة، فهبك تبلغها فما ست سنين تعدل فيها؟.

فقال لي: يا أبا عبد اللَّه ما أجد على هذا الأمر أعوانًا.

قلت: علي أعوانك بغير مرزئة، أنت تعلم أن أبا أيوب المورياني (وزير المنصور) يريد منك في كل سنة بيت مال،

---

(١) أبو الفرج ابن الجوزي: المصباح المضيء في خلافة المستضيء (٢/ ١٣٤، ١٣٥).

وأنا أجيئك بمن يعمل بغير رزق ويتصدق على المسلمين بنفسه، آتيك بالأوزاعي تقلده كذا وبسفيان الثوري تقلده كذا وأكون أنا بينك وبين الناس على مظالمهم أبلغهم عنك وأبلغك عنهم بلا دينار ولا درهم. فقال: حتى أستكمل بناء مدينة السلام وأخرج إلى البصرة وأوجه إليك. فقال له سفيان: ولم ذكرتني؟ فبكى عباد وقال: والله ما أردت إلا النصيحة للمسلمين»[1].

* * *
* *
*

(١) المصباح المضيء (٢/ ١٣٥، ١٣٦).

(٦)

وقال إسحق بن الفضل: « إني لعلى باب المنصور وإلى جنبه (كاتبه) عمارة بن حمزة؛ إذ طلع أبو عثمان عمرو ابن عبيد على حمار فنزل عن حماره ونحّى البساط برجله وجلس دونه.. وما أن سمع أمير المؤمنين بمكانه فما أمهل حتى أمر بمجلس ففرش لبودًا ثم انتقل إليه هو والمهدي، فلما دخل عمرو بن عبيد سلّم عليه بالخلافة، فرد عليه وما زال يدنيه حتى اتكأ فخذه وتحفى به. ثم قال: يا أبا عثمان عظني! فقال: بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١ - ١٤]. قال: فبكى بكاءً شديدًا كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة.

وقال: إن اللَّه قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها، واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك ثم أفضى إليك، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك، وإني أحذرك ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة. قال: فبكى واللَّه أشد من بكائه الأول حتى رجفت جنباه. فقال له سليمان بن مجالد: رفقًا بأمير المؤمنين قد أتعبته منذ اليوم، فقال له عمرو: بمثلك ضاع الأمر وانتشر لا أبا لك وماذا خفت على أمير المؤمنين أن يبكي من خشية اللَّه؟ فقال له أمير المؤمنين: يا أبا عثمان أعِنّي بأصحابك

أستعن بهم، قال: أظهر الحق يتبعك أهله. قال: بلغني أن محمد بن عبد اللَّه بن حسن بن حسن كتب إليك كتابًا فقال: قد جاءني كتاب يشبه أن يكون كتابه. قال: فبم أجبته؟ قال: أو ليس قد عرفت رأيي في السيف أيام كنت تخلفت إلينا أني لا أراه. قال: أجل، ولكن تحلف لي ليطمئن قلبي. قال: لئن كذبتك تقية لأحلفن لك تقية. قال: أنت واللَّه الصادق البر. ثم قال: قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على سفرك وزمانك، قال: لا حاجة لي فيها، قال: واللَّه لتأخذنها، قال: واللَّه لا آخذها. فقال له المهدي: يحلف أمير المؤمنين وتحلف؟ فترك المهدي وأقبل على المنصور فقال: من هذا الفتى؟ فقال: هو ابني محمد وهو المهدي وولي العهد، فقال: واللَّه لقد أسميتَهُ اسمًا ما استحقه عمله، ولقد مهدت له أمرًا أمتع ما يكون به، أشغل ما يكون عنه، ثم التفت إلى المهدي فقال: يا ابن أخي إذا حلف أبوك حلف عمك فإن أباك أقدر على الكفارة من عمك، ثم قال المنصور: يا أبا عثمان هل من حاجة؟ قال: نعم. قال: وما هي؟ قال: لا تبعث إليَّ حتى آتيك، قال: إذن لا نلتقي، قال: عن حاجتي سألتني، قال: فاستحفظه اللَّه، وودعه ونهض قائمًا»[1].

* * *
* *
*

---

(١) المصباح المضيء (٢/ ١٣٧ - ١٤١).

(٧)

وحكى أبو القاسم عبيد اللَّه بن سليمان قال: « كنت أكتب لموسى بن بغا (القائد التركي العباسي) وكنا بالري وقاضيها إذ ذاك أحمد بن بديل الكوفي، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعة هناك، كان له فيها سهام، ويعمرها، وكان فيها سهم ليتيم، فصرت إلى أحمد بن بديل وخاطبته في أن يبيع عليه حصة اليتيم ويأخذ الثمن فامتنع، وقال: ما باليتيم حاجة إلى البيع ولا آمن أن أبيع ماله وهو مستغنٍ عنه فيحدث عن المال حادثة فأكون قد ضيعته عليه، فقلت: إنا نعطيك في ثمن حصته ضعف قيمتها، قال: ما هذا لي بعذر في البيع، قال: فأدركته بكل لون وهو يمتنع فأضجرني فقلت له: أيها القاضي إلا تفعل فإنه موسى بن بغا، فقال لي: أعزك اللَّه إنه اللَّه - تبارك وتعالى - قال: فاستحييت من اللَّه أن أعاوده بعد ذلك، وفارقته فدخلت على موسى فقال لي: ما عملت في الضيعة؟ فقصصت عليه الحديث فلما سمع أنه اللَّه بكى وما زال يكررها ثم قال: لا تعرض لهذه الضيعة »[1].

* * *
* *
*

(١) المصباح المضيء (٢/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٨)

وكلنا نعرف ما فعله قاضي الأندلس المنذر بن سعيد البلوطي الذي تزعم المعارضة ضد إسراف الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر في بناء الزهراء.. لم تأخذه في اللَّه لومة لائم وراح ينصح الخليفة تارة ويعرض به في المساجد تارة أخرى، وغضب الناصر من هذه المعارضة وأقسم بألا يصلي الجمعة خلف المنذر أبدًا، ولكنه لم يحاول عزله أو البطش به؛ حيث لم تكن حرية الكلمة قد وئدت بعد.

يُروَى أن المنذر دخل على الخليفة ذات يوم وهو مُنهمك مع المهندسين في بحث خطط الزهراء، فوعظه المنذر بأن هذا ليس من صميم الحكم، فأنشد الناصر معتذرًا:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبألسن البنيان

أَو مَا ترى الهرمين قد بقيا وكم

ملك محتْهُ حوادث الأزمان؟

إن البناء إذا تعاظم شأنه

أضحى يدل على عظيم الشان

لكن المنذر رد عليه بقوله:

يـا بـانـي الـزهـراء مستـغـرقًـا

أوقـاتـه فـيـهـا أمـا تـمـهـل؟

لـلَّـه مـا أحـسـنـهـا رونـقًـا

لـو لـم تـكـن زهـرتـهـا تـذبـل

ودارت الأيام دورتها وتحقق ما ذهب إليه المنذر بن سعيد؛ إذ لم تعمر مدينة الزهراء أكثر من ستين عامًا ثم لعبت بها أيدي الخراب في أيام الفتن التي قامت في أواخر الدولة الأموية.

فإذا ما تذكرنا ما تؤكده المصادر الأندلسية من أن الناصر بَنَى هذه المدينة تكريمًا لذكرى جارية له تسمى الزهراء، وأنه اشتغل في بنائها جيش من العمال واستنفدت ثلث إيراد الدولة لمدة سبعة عشر عامًا وأن بناءها استغرق أربعين سنة.. وإذا ما عرفنا أنه في مقابل هذا كان هناك جيش من الجوعى والساخطين في طول البلاد وعرضها.. أدركنا ما الذي تعنيه معارضة المنذر، وكم هي ضرورية، وكم كانت تقتضيه من جرأة وشجاعة في الوقت نفسه؛ حيث لم تكن نقطة الارتطام بالسلطة أمرًا عاديًّا![1].

---

(١) عن تفاصيل الحادثة انظر: د. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي (ص٤١٤ - ٤١٨)، (دار النهضة العربية، بيروت - ١٩٧١م).

هذه الوقائع مجرد شواهد فحسب، وهي غيض من فيض، وهناك غيرها، مما لا يتسع له المجال، مئات وألوف..

فلماذا اختار الكثير من علمائنا موقعًا غير الموقع الذي اختاره الآباء والأجداد؟ أتراه الوباء القادم من أوربا النصرانية.. نأخذ عنهم التقاليد والممارسات التي هي ليست من عقيدتنا في شيء ونرفض أن نشبههم فيما يُعد من صلب ديننا وعقيدتنا؟ أم تراها سياسة تحويل العالم الحر إلى موظف مغلول، ملاحق بالخوف والجوع؟

أغلب الظن أنها كذلك..

فما لم يتحرر العالِم ويفك ارتباطه المذل بالسلطة فإنه لن يقدر على صعود درجات السُّلَّم ثانية لكي يتربع في القمة، تمامًا كما كان آباؤه وأجداده، من أجل أن تراه وتسمعه وتلتف حوله الجماهير..

* * *
* *
*

بين (سيد) و (المودودي)

تبلورت في ذهن (سيد) عبر ربع قرن من التعامل مع الإسلام عقيدة وفكرًا وحركةً وسلوكًا، مجموعة من المفاهيم والقيم والتصورات كان يجد تأكيدها وتعزيزها كلما توغل أكثر في قراءة الإسلام ومعايشة كتابه وسنته.. حتى لقد غدت تلك المفاهيم أشبه بالبداهات لكثرة ما التقى بشواهدها ومؤشراتها في معطيات الإسلام.

ويعد كتاباه الكبيران (الظلال) و (المعالم) الذي انبثق عنه وجاء بمثابة تركيز للعديد من مقولاته.. يعد هذان المؤلَّفان أكثر كتب سيد تعبيرًا عن هذه المسألة بحيث تشكل مجموعة المفاهيم الكبرى التي طرحها (سيد) العمود الفقري لهذين العملين وجملتهما العصبية إذا صح التعبير.. وإنها لتغطي المساحة الأوسع من الظلال، وتكاد تكون أشبه بالخلفية ذات الإيقاع الذي يرتكز عليه عمله الكبير ذاك..

وعلى مستوى المنهج فإن (سيد) في هذين الكتابين بدا (مهندسًا) من طراز أول.. وكان يمارس تنفيذ المعمار الهندسي في التقابل والتناظر وطرح التصاميم الأساسية وتحديد المنظور الأوليِّ أو النهائي، من زواياه المختلفة بتمكّنٍ تام.. وإذ كان (المعالم) بمثابة تركيز بالغ الدقة لمقولات (الظلال)، فإنه يعد ولا ريب عملًا هندسيًّا فذًّا

في ميدان هندسة الأفكار، وهي مسألة من بين العديد من المسائل التي تمنح الكتاب قيمته الكبرى..

في (الظلال) و (المعالم) نلتقي بمجموعة من التصاميم العقيدية المقنعة حتى الأعماق؛ لأنها مستمدة مباشرة من معطيات الكتاب والسنة برؤية نافذة وبصيرة قلّ ما توفرت لأحد من المفكرين؛ ولأنها بنيت بحس هندسي صارم لا يطرح المقولة على غير هدًى ولكنه يحسب لكل كلمة أو عبارة، أو فقرة فيها حسابها، ويضعها في مكانها المناسب من تركيب المقولة، كما أنه يحسب في الوقت نفسه لكل فكرة جزئية حسابها ويحدد لها مكانها بالضبط في مجموع البنيان التركيبي للأفكار، فإذا نحن إزاء عمل معماري يبهر العقل ويهز الوجدان بتناظره وتماسكه وتوزيع جزئياته عبر سلسلة من المقابلات ومن خلال رؤية شمولية وقدرة فذة على التركيب.

إن (سيد)، على سبيل المثال، يطرح إحدى المفاهيم الكبرى في الإسلام.. وهي ما يمكن تسميته بالتوحيد الحركي الشمولي، يطرحها في عشرات المواضع ومئاتها.. وبصيغ هندسية صارمة تؤكد صدق مقولتها باستمرار.. إن اللّه جل وعلا، هو الإله والرب، وهو الحاكم والمشرع، وأن أية دعوة تصدر عنه ويحملها نبي من أنبيائه - عليهم السلام - إنما هي منهج انقلابي شامل، يجيء لكي يحول

بين (الطاغوت) وبين تعبيده الناس لحاكميته وتشريعه؛ لكي يحرر الإنسان ويرده لحكم اللَّه وشريعته.. ومن ثَمَّ يبدأ مسلسل الصراع الدامي.. الصراع الحاسم بين الطرفين.. وليس ثمة حل وسط.. لا مساومة ولا تنازلات ولا أية عملية ترقيع أو تلفيق.. إن الدين حركة انقلابية جاءت لكي تحقق كلمة اللَّه في العالم، وتقلب الأوضاع الشاذة الجائرة، المزيفة على رؤوس أصحابها.. بل لكي تقطع هذه الرؤوس إذا اقتضى الأمر، وتفتح الطريق أمام حرية الإنسان وكرامته التي أرادها له اللَّه، لحظة خلقه؛ لأداء دوره المرسوم.

إن الرجل، وهو يتعامل مع الآيات والفقرات والمقاطع والسور القرآنية، تنكشف أمام وعيه هذه المفهومة الكبرى، بطريقة عجيبة، بحيث إن الكثير من الآيات التي لم تكن لتمنحنا هذا البُعْد ونحن نمر عليها المرة تلو المرة.. إذ بها - على يديه - تكشف عن نفسها بشكل يفوق حدود القناعة، وتندرج ضمن التصاميم الهندسية التركيبية من أجل بناء هذه المفهومة الكبرى..

وما يقال عن هذه يمكن أن يقال عن العديد من المفاهيم الأساسية للعقيدة الإسلامية والتي نجدها موزعة ومهندسة في (الظلال) و (المعالم).. ولسنا بصدد الوقوف عندها في هذا المقال الموجز الذي يستهدف حديثًا مقارنًا سريعًا عن مفهومه... (التوحيد الحركي الشامل)..

إن (سيد) ليس أول من طرح هذا التصور، ولا آخر من سيطرحه، بل لقد وقف العقل الإسلامي عبر عصوره المختلفة أمام هذه الحقيقة وتحدث عنها بصيغ مختلفة ومناهج شتى.. إنها واحدة من قواعد الإسلام الكبرى.. بل إنها أشبه بعموده الفقري الذي يقيمه ويمنحه الشخصية والقدرة على الحركة..

ولكن ميزة (سيد) أنه مدها إلى أوسع مدى، وطرحها - كما قلنا قبل قليل - وَفْق تصاميم هندسية باهرة، وامتلك رؤية شمولية كانت تُمكنه من تجميع المفردات القرآنية من هنا وهناك لكي تصب في هذا البحر التصوري الكبير.. وكانت تتيح له فهمًا للسيرة ينسجم تمامًا وهذه الرؤية الأساسية..

وميزته - أيضًا - أنه طرحها في الوقت المناسب تمامًا، وجابه بها عصر الطاغوت الذي أخذ يشرِّع للناس ما لم يأذن به اللَّه، ويتعبدهم بهذا التشريع لنفسه وسلطته.. وهزّ بها قيمًا (علمانية) تفصل بين اللَّه وسياسة الناس.. قيمًا طغت على عقولهم وأفئدتهم بحيث أصبحت، لشدة تكرارها وتأكيدها، بمثابة البداهات..

وكان (سيد) يشكل الحقائق التي يقدمها وَفْق أشد الصيغ إقناعًا وتأثيرًا، وكان يغير - بذلك - قناعات الجماهير المثقفة وبداهاتها الفكرية ويعيد صياغتها من جديد.. كان يمثل تهديدًا مباشرًا للطاغوت الذي تعتمده وتستخدمه

قوى العالم الكبرى ومراكزه القيادية.. وهكذا فإن إعدام الرجل - أغلب الظن - لم يكن عملًا ارتجاليًّا.. ولكن خُطِّط له بحساب!!

ومهما يكن من أمر فإن (سيد) يلتقي مع (المودودي) في هذه المفهومة، كما في كثير غيرها من المفهومات، ولكي لا تكون هذه العبارة مجرد كلام يقال، يمكن لأي واحد منا أن يقوم بقراءة مقارنة بين مؤلفي (سيد) هذين وبين عدد من أبحاث (المودودي) وبخاصة (الجهاد في سبيل اللّه) و (شهادة الحق) و (المصطلحات الأربعة) و (الإسلام والجاهلية).. إنهما يستقيان من نبع واحد، ما في هذا شك وهو أمر بدهي، ولكنهما في الوقت نفسه يمتلكان رؤية واحدة لمعطيات هذا النبع، ويتعاملان معها بمنهج واحد. وكلاهما يحسب لهندسة الأفكار حسابها، ويطرح قناعاته وفق أشد الصيغ منطقية وتأكيدًا.

ونحن نستطيع أن نلمس ذلك عبر صفحات (الظلال) من البدء حتى المنتهى، ولكننا سنقف - على سبيل المثال - عند صفحات محدودة فحسب لا تتجاوز الخمسين، من تفسير سورة الأعراف، لكي نجد هذا التأكيد المستمر، المقنع، المرسوم، لمفهوم (التوحيد الحركي الشامل)، ولكي نجد المفكرين الكبيرين - كذلك - وهما يلتقيان على التصور الواضح الذي لا غبش فيه..

إن (سيد) يقتبس، في أحد مقاطع تفسيره لسورة الأعراف هذه الفقرات من كتاب أبي الأعلى « الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية) (وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية لا يخفى عليه أن المسألة - التي تتوقف عليها قضية ملامح الشؤون البشرية وفسادها - إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها، وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه، وأنه لا بد للركاب أن يسافروا - طوعًا أو كرهًا - إلى تلك الجهة نفسها، فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية.

ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طرًا، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم، وهم يملكون من أدوات تكوين النظريات والأفكار وصوغها في قوالب يحبونها، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية، وإنشاء النظام الجماعي، وتحديد القيم الخلقية، فإذا كان هؤلاء الزعماء والقُوَّاد ممن يؤمنون باللَّه ويرجون حسابه، فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح، وأن يعود الخبثاء

الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم، وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تربو، إن لم تمحق وتنقرض آثارها، وأما إذا كانت هذه السلطة - سلطة الزعامة والقيادة والإمامة - بأيدي رجال انحرفوا عن اللّه ورسوله، واتبعوا الشهوات، وانغمسوا في الفجور والطغيان، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها..

« والظاهر أن أول ما يطالب به دين اللّه عباده أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد، حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير اللّه - تعالى - ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله اللّه - تعالى - وجاء به الرسول الأمي الكريم ﷺ ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب اللّه - تعالى - وسخطه، وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال، ولا يكون من أمر أتباع

الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم، يذكرون اللَّه قابعين في زواياهم، منقطعين عن الدنيا وشؤونها، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات! ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه.

والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضا اللَّه - تعالى - بأيِّ عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفرضية وتقاعس عن القيام بها.. ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة، حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة - ولو قيد شعرة - وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض. وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية، والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها، يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد.. ثم انظروا إلى ما كسب (الجهاد) من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين، حتى إن القرآن الكريم ليحكم بـ (النفاق) على الذين ينكلون عنه ويثَّاقلون إلى الأرض؛ ذلك أن (الجهاد) هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة

نظام الحق ليس غير، وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزانًا يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين، وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن باللَّه ورسوله لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل، أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل إقامة نظام الحق.. فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب، فاعلم أنه مدخول في إيمانه، مرتاب في أمره، فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك؟

إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض اللَّه لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام، فكل من يؤمن باللَّه ورسوله ويدين دين الحق، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون اللَّه، ويرجون حسابه، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المَرْضيُّ عند اللَّه، الذي له صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها »[١].

ثم يعود (سيد) عبر الصفحات التي أشرنا إليها لكي يؤكد (التصور) نفسه من أكثر من زاوية ومن خلال رؤية

---

(١) الظلال (٨/ ٥٦١ - ٥٦٣)، (ط٥ المنقحة، دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٩٦٧م).

واضحة كشعاع الشمس، ومنطق قاطع كالسكين.. إنه يقول:

« .. تكشف مواجهة موسى لفرعون وملئه عن حقيقة المعركة بين دين اللّه كله وبين الجاهلية كلها، وتبين كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين، وكيف يحس فيه الخطر على وجوده كما تبين كيف يدرك المؤمنون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت! إنه بمجرد أن قال موسى عليه السلام لفرعون ﴿ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥] .. تبين مدلول هذه الدعوة إلى (رب العالمين) إنه رد السلطان كله إلى اللّه برد عبودية العالمين كلها إلى رب العالمين! وبناء على هذا المدلول طَلَبَ موسى إطلاق سراح بني إسرائيل، فإنه إذا كان اللّه رب العالمين، فما يكون لعبد من عبيده - وهو فرعون المتجبر الطاغي - أن يعبدهم لنفسه، فهم ليسوا عبيدًا إلا لرب العالمين..

إن رد الربوبية كلها للّه سبحانه معناه رد الحاكمية كلها له، فالحاكمية هي مظهر ربوبية اللّه للناس - وهم من العالمين - وهي تتجلى في العالمين كذلك بخضوعهم للّه وحده، فلا يكون الناس معترفين بربوبية اللّه لهم إلا إذا خضعوا له وحده وإلا إذا خلصت عبوديتهم لهذه الربوبية.. أو بتعبير آخر لهذه الحاكمية.. وإلا فقد أنكروا ربوبية اللّه لهم متى خضعوا لحاكمية أحد غيره، لا يحكمهم بشرعه.

« ولقد أدرك فرعون وملؤه خطر الدعوة إلى (رب العالمين)، وأحسوا أن توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون - وسلطانهم المستمد منه - فعبّروا عن هذا الخطر بأن موسى يريد أن يخرجهم من أرضهم ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠] ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] .. وما أرادوا إلا أن هذه الدعوة إلى رب العالمين لا تحمل إلا مدلولًا واحدًا هو انتزاع السلطان من يد العبيد - الطواغيت - ورده إلى صاحبه سبحانه - وهذا معناه - من وجهة نظرهم - الإفساد في الأرض! أو كما يقال اليوم في قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها: إنها محاولة لقلب نظام الحكم! ومن وجهة نظر الطواغيت الجاهلية التي تغتصب سلطان اللَّه، أي تغتصب ربوبيته وتزاول اختصاصاتها ولو لم تقل هذا باللسان - يكون هذا قلبًا لنظام الحكم؛ لأن نظام الحكم في الجاهليات يقوم على ربوبية عبد من العبيد لبقية العبيد، بينما الدعوة إلى رب العالمين تعني أن تكون الربوبية على العبيد لخالق العبيد! وكذلك قال فرعون للسحرة الذين بهرهم الحق فآمنوا برب العالمين، وخلعوا ربقة العبودية له بهذا الإعلان: إنهم يمكرون لإخراج أهل المدينة من مدينتهم، وهدّدهم بأبشع العذاب والنكال: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ

قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤].

« ومن الجانب الآخر كان هؤلاء السحرة الذين آمنوا برب العالمين، وأسلموا للَّه وحده، وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المغتصب للربوبية واختصاصاتها.. كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت. إنها المعركة على العقيدة؛ لأن هذه العقيدة تهدد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لرب العالمين، بل بمجرد إعلان أن اللَّه رب العالمين! ومن ثم قالوا لفرعون ردًّا على اتهامه لهم بأن هذا مكر مكروه في المدينة ليخرجوا منها أهلها وهو مرادف للاتهام في الجاهليات الحديثة لكل من يعلن ربوبية اللَّه للعالمين بمعناها الجاد بأنه يعمل على قلب نظام الحكم!: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا .. ﴾ [الأعراف: ١٢٦].. ثم لجأوا إلى ربهم الذي آمنوا به فتمردوا على العبودية لغيره قائلين: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦].. فكان هذا فُرقانًا جعله اللَّه في قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام فيها.

.. إن (الطاغوت) يعلم علم اليقين أن الدعوة إلى (رب العالمين) هي بذاتها حرب عليه بإنكار شرعية قيامه من أساسه! وما يمكن أن يسمح الطاغوت بإعلان أن لا إله

إلا اللَّه أو أن اللَّه هو رب العالمين، إلا حين تفقد هذه الكلمات مدلولها الحقيقي وتصبح مجرد كلمات لا مدلول لها وهي في مثل هذه الحالة لا تؤذيه! لأنها لا تعنيه! فأما حين تأخذ عصبة من الناس هذه الكلمات جدًّا بمدلولها الحقيقي، فإن الطاغوت الذي يزاول الربوبية - بمزاولته للحاكمية بغير شرع اللَّه، وتعبيد الناس له بهذه الحاكمية وعدم إرسالهم للَّه - لا يطيق هذه العصبة، كما لم يطق فرعون دعوة موسى إلى رب العالمين، وإعلان السحرة المؤمنين أنهم آمنوا برب العالمين.. وكما ظل هو والملأ من قومه مُصرِّين على رد هذه الدعوة، والآيات تتوالى عليهم، والنكبات كذلك تتوالى عليهم، من الجدب والآفات والجوع والبلاء، ولكن هذا كله كان عندهم أيسر وأهون من التسليم بربوبية اللَّه رب العالمين. لما تحويه من مدلول صريح بعزلهم عن مزاولة هذا السلطان المغتصب الذي يعبدون به الناس لغير رب العالمين! »[1].

ويقول: « إن أولئك الذين يقولون: إنهم مسلمون.. لا مؤمنون ولا متقون! إنهم لا يخلصون عبوديتهم للَّه، ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا اللَّه! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم، يتألهون عليهم، ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم أو التقاليد - وما أولئك بالمؤمنين، فالمؤمن لا يدع عبدًا من العبيد يتأله عليه، ولا يجعل عبدًا من العبيد

---

(١) في ظلال القرآن (٨/ ٥٧٤ - ٥٧٦).

ربّه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره.. »[١].

ويقول: « إن الحياة لا تستقيم وتصلح إلا على أساس الإيمان باللَّه الواحد، والعبودية لإله واحد.. وأن الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبودية للَّه في حياة الناس.. إن العبودية للَّه وحده معناها أن يكون للناس سيد واحد، يتوجهون إليه بالعبادة وبالعبودية كذلك ويخضعون لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة، وشهوات البشر الصغيرة!، إن الفساد يصيب تصورات الناس كما يصيب حياتهم الاجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد - من دون اللَّه وما صلحت الأرض قط وما استقامت حياة الناس إلا أيام أن كانت عبوديتهم للَّه وحده - عقيدة وعبادة وشريعة - وما تحرر (الإنسان) قط إلا في ظل الربوبية الواحدة.. »[٢].

ويقول: (.. إن الإنسان لا يخدم سيدينِ، ولا يعبد إلهينِ، فمن كان عبدًا للَّه فما يمكن أن يكون عبدًا لسواه.. إن إعلان ربوبية اللَّه للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان، تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير اللَّه، تحريره من شر البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر، وإعلان ربوبية اللَّه رب العالمين لا يجتمع مع

---

(١) في ظلال القرآن (٨/ ٥٨٨).

(٢) المرجع السابق (٨/ ٥٩٦).

خضوع أحد من العالمين لغير اللَّه، ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس.. والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صنع البشر - أي لربوبية غير ربوبية اللَّه واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون! إنهم لا يكونون في دين اللَّه لحظة واحدة وحاكمهم غير اللَّه، وقانونهم غير شريعة اللَّه، إنما هم في دين حاكمهم ذاك في دين الملك لا في دين اللَّه.. ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان، إعلان ربوبية اللَّه للعالمين.. لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم مُلْك فرعون، وقلب نظام حكمه، وإنكار شرعيته، وكشف عدوانه وطغيانه.. »[1].

« ولكن هل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوة الخطيرة؟ هل يستسلمون لربوبية رب العالمين؟ وعلامَ إذن يقوم عرش فرعون وتاجه وملكه وحكمه؟ وعلامَ يقوم الملأ من قومه ومراكزهم التي هي من عطاء فرعون ورسمه وحكمه؟ علامَ يقوم هذا كله إن كان اللَّه هو (رب العالمين)؟

إنه إن كان اللَّه هو (رب العالمين) فلا حكم إلا لشريعة اللَّه، ولا طاعة إلا لأمر اللَّه.. فأين يذهب شرع فرعون وأمره إذن، وهو لا يقوم على شريعة اللَّه ولا يرتكن إلى أمره؟ إن الناس لا يكون لهم (رب) آخر يعبدهم لحكمه وشرعه وأمره، إن كان اللَّه هو ربهم إنما يخضع الناس لشرع

(١) المرجع السابق (٨/ ٥٩٩ - ٦٠٠).

فرعون وأمره حين يكون ربهم هو فرعون.. فالحاكم - بأمره وشرعه - هو رب الناس، وهم في دينه أيًا كان!

« كلا إن الطاغوت لا يستسلم هكذا من قريب، ولا يسلم ببطلان حكمه وعدم شرعية سلطانه بمثل هذه السهولة! وفرعون وملؤه لا يخطئون فهم مدلول هذه الحقيقة الهائلة التي يعلنها موسى، بل أنهم ليعلنونها صريحة، ولكن مع تحويل الأنظار عن دلالتها الخطيرة، باتهام موسى بأنه ساحر عليم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٩، ١١٠] إنهم يصرحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة.. إنها الخروج من الأرض.. إنها ذهاب السلطان.. إنها إبطال شريعة الحكم.. أو.. محاولة قلب نظام الحكم بالتعبير العصري الحديث!

إن الأرض للَّه، والعباد للَّه. فإذا ردّت الحاكمية في أرض اللَّه، فقد خرج منها الطغاة الحاكمون بغير شرع اللَّه! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم، وخرج منها الملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى، فيعبدون الناس لهذه الأرباب! هكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة.. وكذلك يدركها الطواغيت في كل مرة.. لقد قالها الرجل العربي - بفطرته وسليقته - حين سمع

رسول اللَّه ﷺ، يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه (هذا أمر تكرهه الملوك). وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته: (إذن تحارب العرب والعجم).. لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته، كان يفهم أن شهادة أن لا إله إلا اللَّه ثورة على الحاكمين بغير شرع اللَّه عربًا كانوا أم عجمًا! كانت لشهادة أن لا إله إلا اللَّه جديتها في حسّ هؤلاء العرب؛ لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيدًا، فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد، ولا في أرض واحدة، شهادة أن لا إله إلا اللَّه مع الحكم بغير شرع اللَّه! فيكون هناك آلهة مع اللَّه! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلا اللَّه كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم (مسلمين) .. ذلك الفهم الباهت التافه الهزيل! »[1].

ويقول متحدثًا عمن يُدعون (رجال الدين): « إنهم محترفون.. يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة! والأجر هو هدف الاحتراف في هذا وذاك! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هي وظيفة المحترفين من رجال الدين! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية للَّه، وإفراده - سبحانه - بالحاكمية، وقام السلطان الطاغوت مقام شريعة اللَّه - احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين، وكافأهم على

---

(١) في ظلال القرآن (٨/ ٦٠٠، ٦٠١).

الاحتراف، وتبادل وإياهم الصفقة: هم يقرون سلطانه باسم الدين! وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين! »[١].

ويقول ملقيًا الضوء على المدلول اللغوي للربوبية، فضلًا عن مدلولها الواقعي: « إن فرعون لم يكن يدعي الألوهية بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومدبره، أو أن له سلطانًا في عالم الأسباب الكونية، إنما كان يدّعي الألوهية على شعبه المستذل! بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه، وإنه بإرادته وأمره تمضي الشؤون وتقضى الأمور، وهذا ما يدّعيه كل حاكم يحكم بشريعته وقانونه، وتمضي الشؤون وتقضى الأمور بإرادته وأمره - وهذه هي الربوبية بمعناها اللغوي والواقعي - كذلك لم يكن الناس في مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له - فقد كانت لهم آلهتهم وكان لفرعون آلهته التي يعبدها كذلك، وكما هو معروف، إنما كانوا هم يعبدونه بمعنى إنهم خاضعون لما يريد بهم، لا يعصون له أمرًا ولا ينقضون له شرعًا.. وهذا هو المعنى اللغوي والواقعي والاصطلاحي للعبادة.. فأيما ناس تلقوا التشريع من بشر وأطاعوه فقد عبدوه، وذلك هو تفسير رسول الله ﷺ لقوله تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ .. ﴾ [التوبة: ٣١] عندما سمعها منه عدي بن حاتم -

---

(١) في ظلال القرآن (٨/ ٦٠٢، ٦٠٣).

وكان نصرانيًّا جاء ليسلم - فقال: يا رسول اللَّه ما عبدوهم. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **بلى، إنهم أحلّوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم** »[1].

لقد سبر الرجلان، (سيد) و (المودودي) - رحمهما اللَّه - غور القرآن والسنة.. وعَرِفَ كلاهما الكثير من معطيات الحضارة الغربية ومناهجها؛ حيث أُتيح لكليهما الاطلاع على قسمات هذه الحضارة والتحدث عنها بحديث العارفين، وبقدر أصالتهما العقائدية ورفضهما العقلاني لمقولات هذه الحضارة بقدر ما أفادا من بعض مؤشراتها وبخاصة بصدد (المنهج) وهما يكتبان ويحللان وينقدان ويبنيان..

إنهما عقلان منفتحان إلى المدى، وما كان لهما إلا أن يأخذا (الحكمة) من أي وعاء خرجت.

ومهما يكن من أمر فإن ما يؤكد التقاء الرجلين فيما نحن بصدده، إنما هو التزايد الملحوظ للاقتباس والإحالات التي اعتمدها سيد من مؤلفات المودودي وبخاصة في الطبعات الأخيرة المنقحة من (الظلال)، وهي دليل منظور سرعان ما يتأكد بمتابعة المساحات الواسعة لهذه الاعتمادات في (الظلال)، ونبرة الود والإعجاب والتقدير التي يرددها (سيد) في هوامشه (للمودودي) ومؤلفاته؛ مثل (المسلم

---

(١) في ظلال القرآن (٨/ ٦٠٩، ٦١٠).

العظيم السيد أبو الأعلى المودودي) و (تراجع بتوسع الرسالة القيمة بعنوان..) و (تراجع البحوث القيمة الدقيقة التي كتبها المسلم العظيم..) و (الأستاذ المودودي) و (يراجع البحث القيم للأستاذ..) و (يراجع كتاب.. للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان) و (المسلم الصادق).

اعتمد (سيد) على معطيات (المودودي) في واحد وثلاثين موضعًا من (الظلال)، فإذا استثنينا مؤلفات (محمد قطب) التي تعتبر امتدادًا لفكر (سيد) فإن (المودودي) يعد أكثر من نقل عنهم (سيد) من المفكرين الإسلاميين المعاصرين.. وهذه شهادة أخرى فيما تحمله من دلالات: لقاء الرجلين في فهم الإسلام وتمثله.. وغناء المعطيات التي قدمها (المودودي) والتي أتاحت لزميله الشهيد أن يأخذ عنه، أو يحيل عليه، في هذا العدد الكبير من المظان.

والمواضيع التي اعتمد فيها (المودودي) عبر (الظلال) يمكن أن تتبلور في المسائل التالية: مفهوم الدين، مفهوم الإسلام، مفهوم الألوهية والربوبية والحاكمية، مفهوم العبادة، مفهوم الجهاد، مفهوم الجاهلية، الربا، العلاقات الجنسية، الأسرة، الخمر، والقيم الخلقية.

أما الكتب التي تم الاقتباس منها، أو أحيل عليها للاستزادة من واحدة أو أكثر من المواضيع آنفة الذكر فهي:

(١) الجهاد في سبيل اللَّه.

(٢) الربا.

(٣) أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة.

(٤) شهادة الحق.

(٥) الحجاب.

(٦) تفسير سورة النور.

(٧) تنقيحات.

(٨) المصطلحات الأربعة في القرآن.

(٩) مبادئ الإسلام.

(١٠) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية.

(١١) الإسلام والجاهلية.

(١٢) نظرية الإسلام الخلقية.

نقل (سيد) في بعض المواضع فقرات حرفية من كتب (المودودي) آنفة الذكر، ولا ريب أن اقتباسه في تفسيره لسورة الأنفال عن كتاب (الجهاد) يعد أوسع هذه الاقتباسات (خمس عشرة صفحة من الحجم الكبير)، وقد قدم لها الشهيد بالعبارات التالية: « .. وبعد فإن هناك بقية في بيان طبيعة الجهاد في الإسلام وطبيعة هذا الدين يمدنا بها المبحث المجمل القيم الذي أمدّنا به المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان

بعنوان (الجهاد في سبيل اللَّه)، وسنحتاج أن نقتبس منه فقرات طويلة لا غنى عنها لقارئ يريد رؤية واضحة دقيقة لهذا الموضوع الخطير العميق في بناء الحركة الإسلامية »[١].

هذا إلى أن (سيد) أحال في مواضع أخرى من (الظلال) على كتب (المودودي) لأغراض التوسع والاستزادة معتمدًا عبارة (يراجع كتاب..) أو (يراجع بتوسع كتاب..) أو (تراجع بتوسع بحوث..) السيد أبي الأعلى المودودي[٢].

إنه - والحق يقال - موقف يدعو إلى الإعجاب: احترام عقل إسلامي فذ في مصر لنظيره في باكستان، وعدم تحرجه من الأخذ عن الأنداد بهذا القدر من التقييم والاحترام.. وإنها لشهادة قيمة بحق أبي الأعلى المودودي - رحمه اللَّه - تعلو على الشهادات!

* * *

* *

*

---

(١) في ظلال القرآن (٨/ ٧٥٣).

(٢) للاطلاع على مظان اعتماد (سيد) لمؤلفات (المودودي) - رحمهما اللّـه - انظر الأجزاء والصفحات التالية من الطبعة الخامسة المنقحة من (الظلال) التي اعتمدناها في هذا المقال (٣/ ٤٣٢، ٤٧٢، ٤٧٥، ٤٨٠، ٤٨٨، ٥٩٤)، (٤/ ١٣٤، ٢٨٠)، (٥/ ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠ - ٣٣٣، ٣٣٨، ٣٥١، ٣٥٧، ٣٧٤، ٣٧٥)، (٦/ ٦٠٠، ٧٨٧)، (٧/ ٢٨٢، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٨)، (٨/ ٤٦٠، ٥٦١ - ٥٦٣)، (٩/ ٦١٠، ٧٥٣ - ٧٦٧)، (١٠/ ٤٩، ٦٨، ١٢٤)، (١١/ ٣٧٥، ٤٤٥)، (١٢/ ٥٨٦، ٦١٠).

كلمات في الدين

(١)

في التحليل الإسلامي، الذي هو المحصل النهائي للحركة الدينية عبر التاريخ، يغدو كل دين سماوي منهج حياة.. يحكمها ويهيمن عليها بتشريع من عند اللَّه سبحانه يتضمن كل التفاصيل والكليات التي من شأنها أن ترتقي بالحياة البشرية صعدًا على طريق الخلافة الراشدة..

منهج شامل للحياة.. ذلك، باختصار، هو تعريف كل دين سماوي بعث به اللَّهُ سبحانه رُسُلَهُ إلى هذا المكان من العالم أو ذاك، أو إلى العالم كله.. في هذه الفترة من التاريخ أو تلك.. أو عبر التاريخ كله..

منهج شامل للحياة، ولذلك حدثت المصادمات الحاسمة بين كل دعوة دينية وبين الوضع العام الذي جاءت لكي (تقلبه) وتعيد صياغته من جديد وفق الأطروحات التي تنزلت من السماء..

إنه ما من (دين) سماوي إلا وجد قادته من الأنبياء الكرام أنفسهم يصطدمون - طال الوقت أم قَصُرَ - مع القيادات الوضعية التي تريد بنظمها وتشريعاتها أن تُعبِّد الناس لزعامتها الجائرة بدلًا من تعبيدهم للَّه.. وإذا كان كل نبي يجيء حاملًا معه منشوره الانقلابي المتمثل بالدعوة إلى

عبادة اللَّه وحده ورفض عبادة العباد.. بالانتماء إلى حكم اللَّه وحده والانشقاق على حكم الطواغيت.. بالالتزام بتشريع اللَّه وحده والتحرر من نظم العبيد..

كان لا بد من المجابهة والصدام.. فليس ثمة تهاون أو تعايش أو تصالح بين الطرفين.. ليس ثمة أيما جسر يصل بينهما، ولا أيما فسحة للمساومة وتقديم التنازلات من قبل هذا الجانب أو ذاك.. إنه صراع بين موقفين لا لقاء بينهما على الإطلاق: الحق والباطل.. الهدى والضلال.. الإيمان والكفر.. الاستقامة والالتواء.. النور والظلام..

إن الحكم إما أن يكون للَّه.. أو للطاغوت، وما كان لمبعوثي اللَّه سبحانه إلا أن يُنفذوا كلمته في العالم أو تنفرد سوالفهم.. وقد كان!!

ونتذكر جيدًا.. موسى عليه السلام وقومه وهم يتعرضون لطغيان فرعون تقتيلًا وتعذيبًا وتنكيلًا واستحياء وتصليبًا في جذوع النخل وتقطيعًا من خلاف.. وعيسى عليه السلام وتلامذته وهم يتعرضون لطغيان قيصر وحملات الإرهاب والإفناء التي سلّطها عليهم من كل مكان.. ومحمدًا ﷺ وأصحابه وهم يتعرضون لطغيان الوثنية العربية ومطارداتها وحصارها وتعذيبها المرير..

موسى وهو يتحدى فرعون: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وعيسى وهو يعلن بمواجهة روما:

« لقد جئت بالسيف إلى هذا العالم ».. ومحمد ﷺ وهو يجابه الوثنية العربية بالحسم الذي يليق بجدية الأديان « **والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه** »..

لقد كانت الأديان السماوية جميعًا مناهج حياة جاءت لكي تبني الحياة على عين الله وبتشريعه.. وتعلن انقلابها على نظم الطواغيت والأرباب والكهنة والمشعوذين والزعماء والمتألهين الذين كانوا، وسيظلون يمارسون عملية تشويه الحياة، وقتلها، وتخريبها.

كان لا بد من الصدام..

* * *
* *
*

(٢)

إن اللّه سبحانه لا يمكن أن يناقض نفسه.. وحاشاه.. وهو القائل في كتابه الكريم: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣] ... ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤] .. وهو القائل أيضًا في أكثر من موضع: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [يس: ٨٣] .. ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٣]..

هل ثمة أكثر وضوحًا من هذه الآيات بصدد حقيقة الدين، وكونه (تنظيمًا) شاملًا للحياة البشرية على هذه الأرض وَفْق تشريع اللّه.

إن ألوهية اللّه سبحانه، أي ربوبيته وحاكميته، تمتد - بالضرورة - إلى أقطار الكون الأربعة.. تحكم هذا الكون، وتنظم مسيرته، وترسم مصيره.. لا يند عليها زمن أو مكان، أو حتى حيز من زمن أو مكان.. هيمنة مطلقة تمتد إلى الأجرام الهائلة فتسيرها في مداراتها الشاسعة، وتتوغل إلى قلب الهباءات الصغيرة في قلب الذرة فتديرها في مساراتها التي لا تحس ولا ترى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

أفيعقل أن تشذ كرتنا الأرضية الصغيرة وعالمنا المحدود عن هذه الهيمنة والحاكمية؟ ولماذا؟ أو يعقل أن تطوي إرادة اللَّه ونظامه السماواتِ كلَّها وتترك الأرض تفلت من قبضته لكي يتولاها حفنة من الأرباب الزائفين الذين يسعون بنظمهم القاصرة وتشريعاتهم الملأى بالتناقضات والأخطاء، وأحكامهم النسبية المنبثقة عن رؤيتهم المحدودة ذات الوجه الواحد، ومصالحهم، ومصالح المحيطين بهم والمقربين إليهم فحسب.. يسعون إلى تعبيد الناس لهم من دون اللَّه؟ ثم.. أيعقل أن يبعث اللَّه أنبياءه إلى العالم لكي يعيدوا (روح) الإنسان إلى مسارها الطبيعي تاركين كل ما عدا هذا لأُولئكم الأرباب الزائفين لكي يعمقوا الشرخ، ويزيدوا الفوضى، ويقوموا بعملية تطويق سهلة ميسورة، لكافة الإنجازات الروحية للأنبياء ما دامت أنها لا تستند إلى قاعدة مادية صلبة، ونظرة شمولية في العمل، وتشريع يكفل تسيير كل صغيرة وكبيرة وفق المسار أو الناموس الذي يتوافق وينسجم مع قوانين الكون كله حيث لا حاكم، ولا مشرع، ولا مريد إلا اللَّه؟!

أبدًا.. ولن يقول بهذا مخلوق يملك ذرة من احترام للعقل البشري.. إنه إذا كان الحكام الوضعيون لا يرتضون إلا أن تخضع كافة الممارسات وسائر الفاعليات في ممالكهم الصغيرة لنظامهم وتشريعهم وحاكميتهم، ويعتبرون الأخذ

عن أي مصدر آخر للتشريع انشقاقًا على (شريعتهم) وتمردًا على حاكميتهم، يستوجب الإيقاف والعقاب..

فكيف تكون حاكمية اللَّه، خالقِ الإنسان والعالم، نسبية محدودة تمتد إلى هذه الجهة من الكون، وتترك تلك، وتهيمن بنظامها وقوانينها على هذا الجانب من الحياة وتترك ذاك؟!

إن المنطق الديني يتجاوز هذا العبث الذي يصدر عن الجهل والسذاجة حينًا، ويُرْسم بمكر وخبث حينًا آخر لفتح الطريق أمام النهازين والدجالين لكي يسوسوا الناس ويتعبدوهم على هواهم ومن أجل تحقيق مصالحهم فحسب.. يتجاوز هذا العبث ويطرح مقولاته بالصرامة والجدية والوضوح والحسم الذي يتطلبه الموقف الديني بما أنه صادر عن اللَّه سبحانه..

إنها مقولة صارمة لا تقبل نقضًا ولا جدلًا لأنها فوق التناقضات والمجادلات.. ومعادلة دقيقة لا تقبل خطأً؛ لأن قيمتها موزونة.. محسوبة.. ثابتة.. وحقيقة واضحة لا تقبل تشويهًا وتزييفًا لأنها امتداد للسنن والنواميس..

إن اللَّه سبحانه هو حاكم الكون كله.. ورب الكون كله.. وإله الكون كله..

لن يشذ عن حكمه وربوبيته وألوهيته نيوترون أو إلكترون.. ولا حبّة في ظلمات الأرض.. ولا ورقة تسقط من شجرتها.. ولا رطب ولا يابس..

لا يشذ عن حاكميته شيء.. فهل تشذ الكرة الأرضية، بطولها وعرضها، عنها؟

هل يشذ بنو آدم الذين سخرت لهم هذه الأرض وينطلقون على هواهم في مناكبها؟

إنه الجهل والسذاجة.. أو المكر والخبث والمصلحة.. وليس ثمة شيء وراء هذا وذاك..

* * *
* *
*

(٣)

منذ لحظة هبوط آدم عليه السلام إلى هذا العالم كان (الدين) بمثابة الخلاص الوحيد.. الخلاص على إطلاقه.. الخلاص من التعاسة والشقاء والتمزق والتقاتل والتناقض والاضطهاد والاستغلال والامتهان والجوع والجهل والمذلة.. الخلاص من كل ما من شأنه أن ينزل بالإنسان درجات عن المكانة الكريمة التي أرادها اللّٰه سبحانه يوم خلْقه وتكريمه ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

الخلاص على إطلاقه.. ولن يتحقق هذا إلا بدين شامل يقود الناس عبر الطرق الملتوية المعوجة إلى الصراط.. وكيف يعرف الناس الصراط ويلتزمون السير عليه إلى أهدافهم عبر رحلتهم الأرضية الطويلة المتشعبة المضنية الملأى باحتمالات الانحراف والمروق، إن لم يكن بشريعة شاملة فيها تبيان كل شيء وتتضمن (تفصيل كل شيء)؟!

إن مجابهة الانحراف لن تكون بكلمات تُقال.. ولا بدعوة مسالمة لتطهير روح الإنسان من الشر والخطيئة، ولا بدين تقتصر مفرداته على الصلاة والحج والصيام.. لن تكون إلا بتشريع مفصل، ودعوة شاملة، ودين يتولى معالجة كل شيء.. وإن تخليص الناس مما يعانونه،

وتحريرهم منه، وصياغة عالم سعيد جدير بكرامة الإنسان، لن تصنعه إلا حركة تسير على أرض الواقع وتستمد من ثقله ومواضعاته وسائل قدرتها على الانتقال بالناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده..

إنها مهمة ثقيلة مبهظة تحتاج إلى جهد مبهظ ثقيل، وبرنامج عمل مرسوم لا تند عنه صغيرة ولا كبيرة، ولا تنسحب من تحت قدميه أرضية العالم بكل ثقلها وصلابتها.. تُرى أبمقدور حركة جادة أن تسير في الفضاء؟

لقد كان الدين، منذ لحظة هبوط آدم وحتى مبعث الرسول الكريم - عليهما السلام - طريقًا للخلاص بهذا المعنى وحده، وليس بأيِّ معنى آخر على الإطلاق:

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٦ - ٣٩]..

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

والدين هو المنهج والشريعة والنظام.. وهو يأتي هنا لتأكيد حقيقة كونه المنهج الوحيد بمواجهة سائر المناهج الوضعية التي تقوم على التحريف والتزييف والتزوير لحقائق الكون والوجود والإنسان.. فإما هذا أو ذاك، وليس ثمة اختيار - ها هنا - بين المنهجين.. بمعنى آخر.. ليس ثمة مجال (للتلفيق) بأخذ هذا الجانب من المنهج الديني وذلك الجانب من المنهج الوضعي.. إذ كيف يكتمل ويتوافق ما هو غير متوافق بطبيعته وبحكم انبثاقه عن مصدرين للمعرفة مختلفين ابتداء؟ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فهو اختيار واحد حاسم أخير بين (الصراط) الذي يقود إلى اللّه لأنه من تصميم اللّه، وبين (السبل) التي تفرق الناس عن سبيل اللّه لأنها من صنع الناس.. وإذا كان الطريق الأول يقود إلى التحرر والكرامة والخلاص.. فإن الطريق الثاني يقود - يقينًا - إلى العبودية والامتهان والشقاء.. يقينًا..

ذلك لأن معطيات التاريخ وأطروحاته لا تقول بغير هذا!!

* * *
* *
*

(٤)

وقد قيل في ذلك الكثير وكُتب الكثير.. ولن نرجع هنا إلى شهادة التاريخ على امتداده ولا إلى أولئك (الشهود) الذين حدّثونا عن أزمة الحضارة المعاصرة فأطالوا الحديث[1]؛ حيث التأكيد الدائب المستمر على حاجة العالم المعاصر للدين، وعلى أنه (الحل) الوحيد لمعاناته ومرارته وعذابه..

ولكننا سنقف بعض الشيء عند حدث لا يزال قائمًا، وهو لا ريب واحد من أشد الأحداث المعاصرة إثارة وأهمية ذلك هو ثورة الطبقة العاملة في بولندة..

نعم الطبقة العاملة؛ حيث يفترض أن تعض بنواجذها على النظام الشيوعي باعتبارها صاحبة المصلحة الحقيقية فيه.. أولًا وأخيرًا.. وباعتبار أن الماركسية تنفيذ تاريخي لإرادة الطبقة العاملة بالذات.. الأمر الذي وجد ضربة قاسية للعمود الفقري للفكر الشيوعي وزرع بذور القلق والشك في صدق المقولات الماركسية ابتداءً..

ويبدو أن تحول النظم والأحزاب الشيوعية إلى أدوات هينة لتحقيق أهداف (روسيا) وتبريرها، وإضعاف طابع (العقائدية) عليها على حساب الشعوب التي حُكِمَتَ -

---

(١) سبق وأن عرضت بالتحليل لشهادات عدد من هؤلاء (ولسون، شبنغلر، توينبي، برنارد شو، جيوروجيو، ليوبولدفايس.. إلى آخره) في كتاب (تهافت العلمانية) الفصول (٥، ٦، ٧).

عن غير اختيار - من قبل هذه النظم والأحزاب.. هو الذي أثار هذه الشعوب بكافة طبقاتها، بما فيها الطبقة العاملة صاحبة المصلحة الحقيقية في الشيوعية، فقامت بسلسلة من الانتفاضات والحركات الثورية للتحرر من الهيمنة الروسية التي دمغتها الصين بالإمبريالية (الأمر الذي شهدناه في المجر وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وبولندة ...).

والذي يهمنا هاهنا ما حدث في بولندة في أواخر القرن الماضي.. لأن فيه بعدًا واضحًا وملحًّا!! بعدًا دينيًّا في كيان حركة عمالية كانت قد ربيت منذ نعومة أظافرها على المادية والإلحاد!!

نعم.. وليس ثمة في الأمر ما يدهش.. بل إن العكس هو الذي يثير الدهشة.. فلا تستطيع قوة في العالم، مهما أوتيت من أسلحة فكرية أو إمكانيات مادية أو فن في التنظيم، أن تقتل النزوع الديني في نفس الإنسان فردًا وجماعة، بله أن تحجبه وتضيق الخناق عليه.. لأن هناك في المقابل كلَّ المتاعب والمآسي والمنغصات والمرارات التي تتمخض - بالضرورة - عن غياب الدين.. وهي تملك من الثقل والامتداد والتأثير ما يدفع الناس دفعًا إلى البحث والخلاص بالرجوع ثانية إلى مرافئ الطمأنينة والأمن والتوازن والاستقرار.. المرافئ الآمنة التي ساقتهم بعيدًا عن رياح المادية والإلحاد وعواصفهما المترعة بالغبار والتراب..

وفي يوم ما قام العمال الثائرون بصلاة جماعية من أقصى البلاد إلى أقصاها.. وفي يوم آخر ذهب زعيمهم (ليش فاليسا) لمقابلة (البابا) في الفاتيكان وركع عند قدميه لكي يتلقى منه البركات.. فضرب بسلوكه هذا مقولات الماركسية عرض الحائط؛ لأن المفروض والبديهي أن يذهب إلى الكرِمْلِين لكي يركع هناك ويأخذ مكانه في الطابور الطويل منتظرًا دوره في إلقاء التحية وأداء مراسم التبجيل لجثمان الراحل العظيم (لينين).. ولن يستطيع أحد من تلامذة (لينين) أن يقول أن (فاليسا) شخص بورجوازي مهرطق؛ لأن الطبقة العمالية في طول البلاد البولونية وعرضها هي التي اختارته وباركته.. وإنها لمحنة بالنسبة للفكر والنظام الشيوعيين، وتحدٍّ تصعب الاستجابة له، ولكن من قال بأن الدين قد قضي عليه إلى الأبد وأنه لن يرجع ثانية وثالثة ورابعة لكي يتحدى المادية والإلحاد ويمتحنهما، ويقف قبالتهما قويًّا راسخًا عميق الجذور؟

ولقد جاء انتخاب البابا يوحنا، وهو الرجل البولوني، بمثابة دفعة جديدة قوية للنزوع الديني للثورة البولونية، وتعميق للعناق الحار بين الدين والثورة هناك!!

فها هنا.. في قلب المجتمعات ذات العلاقات المادية الصرفة، والتربية والتثقيف المُبرمجين على أساس رؤية إلحادية بحتة.. ينتقض نداء الإيمان.. ويتحرك الوازع الديني

من تحت ركام عشرات السنين المترعة بعمليات القتل والتدمير والاستئصال..

هنا نجد كيف تعمل حتميات التاريخ عملها.. فليس الصراع الطبقي هو الحتمية الوحيدة فهناك حتميات أخرى تكاد تطوي في جناحيها هذا الصراع وتشق له مجرى آخر مغايرًا تمامًا!!

وفي روسيا (الأم) نفسها لعبت (الحتمية) الدينية دورها في إرغام القيادة الفكرية على الاعتراف، بشكل أو بآخر، وبدرجة أو أخرى.. بهذا الكائن الحي الرابض في الأعماق، المتشابك مع الخلايا، المتوحد في صميم التجربة.. فتراجعت بعض الشيء إن على مستوى المجتمعات النصرانية في الاتحاد السوفيتي أو على مستوى المجتمعات الإسلامية هناك، وأقر دستورها ما لم يكن يخطر على بال (ماركس) أو (لينين).. ولا نقول (ستالين) لأن هذا وجد نفسه مضطرًّا هو الآخر لدى هبوب عاصفة الهجمة النازية، لكي ينحني أمام المقولة الدينية ويطلقها من الأسر لكي تمنح الناس القدرة على المقاومة والصمود بعد إذ عجزت عنها مقولات التبدل في وسائل الإنتاج!!

وفي الصين الشيوعية يحدث - ولأول مرة - وبعد مرور ما يقرُب من نصف القرن على قيام تجربتها الماركسية، أن تُمنح المجتمعات الدينية حريتها المهضومة، وأن يتحرك

ملايين المسلمين صبيحة عيد الفطر المبارك لكي يؤدوا صلواتهم كما كان يؤديها - يومًا - الآباء والأجداد..

تُرى.. أين ذهبت جهود نصف قرن في صياغة أجيال جديدة استلت من كينونتها كل النزعات الدينية وشحنت شحنًا بتيارات الكفر والإلحاد؟

هذه لمحات مما حدث - هناك - في نسيج المجتمعات الشيوعية المادية.. فكيف بغيرها من المجتمعات؟

مرة أخرى.. إن معطيات التاريخ وأطروحاته لا تقول بغير ثقل الحقيقة الدينية وأصالتها وديمومتها وقدرتها على الفعل والتحقق والانتشار.. يقينًا..

* * *
* *
*

(٥)

إن فطرة الأفراد، أو تكوينهم الذاتي، وتركيب المجتمعات، أو طبيعة العلاقات الاجتماعية، ومناهج البحث العلمي - تؤكد اليوم، وسيزداد تأكيدها، أطروحات الدين كضرورة نفسية، واجتماعية، وحضارية..

اليوم ندرك أكثر فأكثر إحدى مقولات القرآن الكريم ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

إنها الشهادة المركوزة في الأعماق على ربوبية اللَّه: عهدًا ومسؤولية والتزامًا وإنه نسيج للفطرة قد يتشابك النزوع الديني في لحمته وسداه..

إن فطرة الإنسان (متدينة) ابتداء.. ولكن فقدانها التوازن لهذا السبب أو ذاك، وكنتيجة لهذه السلسلة من الضغوط أو القسر أو تلك، هو الذي يجنح بها باتجاه الإلحاد.. والجنوح حالة مرضية.. حالة استثنائية.. ولن يؤخذ به مقياسًا على أي وجه من الوجوه.. إنما المقياس هو حالة التوازن، وحالة التوازن تلك قد محضت بالدين!!

فمن خلال هزة نفسية عنيفة، أو خطر جاثم مخيف، أو نازلة مفجعة، أو خسارة مبهظة.. ومن خلال إحساس مرير بالفراغ.. أو التمزق.. أو التشتت.. أو الملل.. أو التخمة.. أو اليأس.. أو الاكتئاب.. أو الضيق.. أو الاختناق.. يجد الإنسان نفسه وهو يهرع لطرق الأبواب التي أقفلت على وجدانه الديني، وهزّ النوافذ التي سدت على إحساسه الإيماني، وتمزيق الستائر التي أسدلت على نزوعه الغيبي.. حتى إذا ما فتحت الأبواب والنوافذ الموصدة، وأزيحت الستائر المسدلة، وجد الإنسان نفسه يعود ثانية إلى فطرته التي فطر اللَّه الناس عليها، ويتحقق بالتوازن المفقود..

وثمة حشود لا يحصيها عد لشهادات أناس عانوا من تجربة الجنوح المبهظة ثم عادوا بعد فترات تطول أو تقصر إلى مرافئ الإيمان في نفوسهم، فانقلب العالم في أعينهم، بعد أن اضطرب وتفكك وتأرجح طويلًا: إلى سلام وود ومحبة وثقة وسكينة واطمئنان وفرح وتعاطف وتناغم وانسجام..

إن العودة إلى الدين ليست عودة إلى النبع الصافي والجذور الموغلة في الأعماق فحسب، وليست لقاء بالفطرة النقية بعد ضياع وتخبط طويلين في دروب الضلال المترعة بالغبار فحسب.. ولكنها - فوق هذا وذاك - لقاء بالناموس الذي يسير السماوات والأرض والحياة والأشياء.. تجانس معه ووفاق وتناغم.. هنالك حيث يتوحد إيقاع الخليقة

وهي تتحرك فاعلة معطاءة، متوجهة صوب المصدر الواحد متعبدة إياه، مسبحة بحمده وجلاله..

ومن خلال هذا الإيقاع المتجانس.. هذا التوافق في الحركة.. والتوجه المتوحد نحو المصدر والمصير، يتحقق الكسب الكبير الواعد الذي يمنحه اللّٰه سبحانه لعباده الأوابين إلى فطرتهم.. على مستويينِ، مستوى الإحساس الذاتي بالانسجام والفرح والوفاق.. وهو إحساس حلو المذاق يصعب وصفه.. ومستوى القدرة على الحركة والفاعلية والعطاء..

فإن إنسانًا يلتقي بالناموس في حركته المتوحدة، غير ذلك الذي يرتطم به ويتعارض معه.. ها هنا تجميع للطاقة، واستجاشة لها، واستمداد من ارتباطاتها الكونية التي ما لها من حدود.. وهناك تفتيت لها، وتجميد لفاعليتها، وقطيعة مريرة بينها وبين الكون على مداه..

إن المنبت لن يستطيع أن يفعل شيئًا.. إنه مقطوع من شجرة الخليقة الكبرى.. مُتيبس حتى النخاع.. أينما توجهه لا يأتي بخير..

وما لم يرجع الإنسان إلى فطرته، فلن يفضل - بحال - ورقة مهشمة صفراء لفظتها الشجرة الكبيرة التي لا تمنح نُسْغَها إلا لمن تحس أنه منها.. وإليها!!

* * *

(٦)

فماذا عن البعد الديني في المجتمع؟! ماذا عن النزوع الإيماني في شبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة الشاملة؟!

لقد جربنا وجرب الناس في مشارق الأرض ومغاربها، حياة وعلاقات اجتماعية أُريد للدين أن ينفض يديه منها، طلب منه حينًا وأرغم أحيانًا، على عدم التدخل في هذه المسألة أو تلك، وفي هذه المعضلة أو تلك، وبمرور الوقت ازداد الطلب واتسع نطاق الإرغام، حتى جاء اليوم الذي ضيق فيه الخناق على (الحل الديني) للمشاكل الاجتماعية، و (الموقف الديني) من المعضلات العامة، ووجد الدين نفسه مضطرًّا للانزواء في المساجد والجوامع والتكايا.. أو في الأديرة والكنائس والصوامع.. فإذا ما أتيح له أن يغادرها إلى الحياة العامة لم يسمح له بأكثر من الإدلاء برأيه في مسائل الأحوال الشخصية.. يقفل بعدها عائدًا إلى زاويته لكي يأوي إليها..

ماذا كانت النتيجة؟

الفوضى.. والفساد.. ومن ورائهما حشود من الأخطاء والشرور والمآسي والمتاعب والمنغصات والآلام..

ابتداءً بعلاقة الزوج بزوجته والأب بأبنائه والرجل بالمرأة وانتهاءً بالعلاقة بين المجتمعات البشرية على مدى العالم كله، مرورًا بشبكة واسعة معقدة من العلاقات الاجتماعية بين عدد لا يحصيه عد من الأطراف التي تعمل في المجتمع الواحد..

وكل النظم الوضعية المادية أو العلمانية التي سعت لتنظيم العلاقات الاجتماعية من خلال منظورها المذهبي أو التشريعي.. ما لبثت بعد فترة قد تطول وقد تقصر، إن وجدت تنظيمها يتعرض للاهتزاز والتفكك وتنفتح فيه ثغرات تتسع يومًا بعد يوم لكي تدخل المزيد من الهواء الفاسد الذي يسمم الحياة الاجتماعية ويملؤها بالأكدار.. وعبثًا حاولت سد تلك الثغرات وترصين السداد الاجتماعية كيلا يكتسحها الفيضان.. ولكنه قدر اللَّه.. فإن من اختار أن يتجاوز هندسته المعجزة للعلاقات الاجتماعية واستبدلها بهندسة بشرية تتسم بالنسبية والعجز والقصور والخضوع لمقولات الزمن والمكان المحدودين.. لا بد وأن يتلقى جراء فعلته تلك اهتزازًا في النظام يفتح على من فيه ثغرات يتسلل منها الماء الذي يكسر كل الموانع والحواجز لكي ما يلبث أن يغمر التجربة كلها بالفوضى والفساد..

ولقد حذر الرسول ﷺ من هذا المصير المفجع عندما شبه التجربة الاجتماعية بمجموعة من الناس تبحر في سفينة إلى هدفها المنشود، ويبيح بعض ركابها لأنفسهم أن يعبثوا فيها حيث يجلسون، فإن لم يأخذ الآخرون على أيديهم هلكوا جميعًا وإن أوقفوهم في اللحظة المناسبة نجوا جميعًا..

ولكن أحدًا لم يسع إلى وقف أولئك الذين يعبثون في سفن حياتنا المعاصرة.. أولئك الذين منعوا الدين من أن

يقوم بدوره كاملًا في مجابهة تحديات الحياة، وأحلوا بدلًا منه أهواءهم ومصالحهم وظنونهم.. فكانت الكسور.. وكان تسلل الماء والغرق الوشيك!!

ونقرأ في كتاب اللّه هذه الدعوة الحاسمة: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فنضع أيدينا على المفتاح.. وندرك السر الذي يكمن وراء كل المتاعب والآلام التي تغطي حياتنا الاجتماعية.. وراء هذا البحر الطامي من الفوضى والفساد.. إن أحدًا لم يتحرك لوقف الفتنة.. والذين تحركوا لم يُسمع لندائهم.. وكان ما كان..

ونقرأ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

وإنه لتحدٍّ هذا الفساد الذي يأخذ اليوم بخناق العالم، وإن بوادر الاستجابة الناجحة له قد لاحت في الأفق لحسن الحظ.. إنها الرجوع إلى الدين.. وذلك هو المؤشر الذي يسم الكثير من المواقف والدعوات والحركات في العقود الأخيرة من القرن الفائت.

ومعنى هذا أن التنظيم الديني للحياة الاجتماعية يمثل (حتمية) لا بد من الاعتراف بها والإذعان لمقولاتها.. وإلا اكتسحنا الفساد.. ليس ثمة اختيار.. إما هذا أو ذاك.. إما (النظام) وإما (الفساد)..

فما شرعه اللّه للمجتمعات البشرية هو غير ما يشرعه العبيد.. ليس ثمة وجه للقياس والمقارنة على الإطلاق.

شريعة اللّه سبحانه تنبثق عن العلم الكامل المحيط والرؤية الشاملة والنفاذ إلى أعماق الأشياء والظواهر.. إنها تضع النظم والضوابط والقيم والمعايير لجماعة هي من خلق اللّه وصنعه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

إن شريعة اللّه هي الصياغة المثلى لحياة اجتماعية يسودها التوازن والعطاء.. وما دونها من الشرائع الوضعية لا تعدو أن تكون محاولات يحكمها الهوى، والظن، والتخمين، وتسودها تجارب الخطأ والصواب، فتفقد بمرور الوقت توازنها وقدرتها على الإبداع..

وشتان بين تصميم اللّه سبحانه للعلاقات الاجتماعية وبين تصميم هذا الفرد أو ذاك من عباده ذوي القدرات المحدودة والرؤى النسبية والأحكام التي تطيش معها الموازين.. شتان بين تصميم يمتلك ضمانات الحماية والرقابة والتنفيذ الأمين بسبب من انبثاقها من الداخل.. من الضمير المؤمن الذي يستشعر رقابة خالقه في كل ممارسةٍ مهما كان حجمها صغيرًا أم كبيرًا.. وبين تصميم لا يملك سوى ضمانات الرقابة الخارجية والحماية المادية والتنفيذ المنظور.. وهي كلها لا تمنع (التجربة) من أن تنحرف عن مسارها الصحيح وتتجاوز الخط المرسوم..

وكلنا يعرف - على سبيل المثال - ما حدث بالنسبة لواحدة من العلاقات الاجتماعية، بل بالنسبة لجانب صغير منها، تلك هي مسألة إباحة الطلاق وَفْق شروطها المعروفة، فإن النظم الوضعية وكهنتها أدانوا هذه الإباحة، وملأت إدانتهم آلاف الصفحات في بطون الكتب والدوريات، وعلت أصواتهم في قاعات الدرس والمحاضرات.. وما حدث بعد هذا معروف.. عاد الكثير من هذه النظم، بعد عشرات من تجارب الخطأ والصواب، وبعد مسيرة طويلة مترعة بالتخبط، لكي تبيح الطلاق.. وما قصة التصويت على الإباحة في البرلمان الإيطالي، على بعد خطوات من (الفاتيكان) معقل الكاثوليكية، عنا ببعيدة: صوّت أكثرية الأعضاء على الإباحة بعد سنوات من النقاش والجدل.. واعتبر تحقيق الإباحة مكسبًا شعبيًّا ووصفته الصحف اليسارية بأنه خطوة تقدمية!!

هذا مثل واحد من مئات.. ولن يتسع المجال للمزيد.. وثمة ما نقوله على وجه الجزم والحسم: إنه حينما كانت هناك قضية أو معضلة اجتماعية، حيثما كان حلّها الأوحد هو ذلك القادم من عند اللَّه، وطاش ما عداها من محاولات، فأصحابها ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣] والهدى واحد لا يتعدد.. وما عداه فهو الضلال..

(٧)

وماذا عن الدين - أخيرًا - كضرورة حضارية؟

لن يتسع المجال هنا للحديث عن هذا الجانب.. فقد سبق وأن أفضت القول فيه في ثلاثة من الكتب[١].. وليس ثمة ضرورة لتكرار ما قلته هناك؛ إذ يمكن الرجوع إليه في مظانه[٢]..

ويبقى (الدين)، قبل هذا كله، وبعد هذا كله، الحتمية الوحيدة في مسيرة الإنسان فردًا وجماعة، وهو يصنع وجوده ويتحرك صوب مصيره..

* * *
* *
*

---

(١) تهافت العلمانية، التفسير الإسلامي للتاريخ، حول إعادة تشكيل العقل المسلم.

(٢) انظر على وجه الخصوص: التفسير الإسلامي للتاريخ، الفصل الثالث، الصفحات(١٩٢ - ١٩٨، ٢١٣ - ٢٣٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٨٥ - ٢٩٣، ٢٩٥ - ٣٠٤)، (دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٧٤م).

علم الهوى وعلم النبوة

(١)

يرتبط العلم الذي يُشرِّع للناس مناهج حياتهم في مستوياتها وخلاياها كافة، بأخلاقية صاحبه وطبيعة رؤيته للظواهر والأشياء ارتباطًا وثيقًا. فالمفكر الوضعي - إلا في حالات نادرة جدًّا تكاد تكون معدومة - لا يستطيع تجاوز الادّعاء والغرور والانتفاخ ومطّ الحقائق الجزئية، واعتبار فلسفته أو عقيدته أو منهجه المفتاح الوحيد للكون والعالم والحياة، من أجل أن يسوق وراءه عددًا أكبر من العبيد والمستذلين، وهو من أجل ذلك مستعدٌّ أن يغير مواقفه بين الحين والحين، وأن ينقلب على قناعاته لحظة بعد أخرى، من أجل ضمان مصلحته التي قد تقتضي تقلبًا كهذا، وحماية موقعه الفوقي الذيَ يمنحه القدرة على استعباد الأذلاء والمعجبين والأتباع.

لكن النبي - أي نبي - لم يكن بمقدوره أن ينحرف قيد أنملة عن التعاليم الربانية الآتية من السماء، والتي تمثل الحق المطلق الذي لا يخضع للمصالح والأهواء والمتغيرات والنسبيات والظنون، لأنها صادرة عن اللَّه سبحانه.

والقرآن الكريم حين يحدثنا عن خطاب اللَّه - جل وعلا - لنبيه الكريم - عليه أفضل الصلاة والسلام - بآيات كهذه:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٧].

﴿ .. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس: ١ – ١٠].

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣ – ٧٥].

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص: ٨٦، ٨٧].

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

﴿ .. لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤، ٩٥].

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥].

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۚ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

بل إننا لنجد أنفسنا قبالة مفردة متألقة أخرى بين حشود من المفردات لا يتسع المجال لإيرادها.. إن القرآن الكريم يمضي إلى زوجات الرسول ﷺ والمحيطين به، وبدلًا من أن يمنحهم المزيد من المكاسب والميزات، كما يحدث في دوائر الزعامات الوضعية، نجده يتهدد ويتوعد ويعلن عن مضاعفة العذاب لأيٍّ من زوجاته - رضي اللّٰه عنهن - قد تمارس خطأً أو فاحشة وحاشاهن جميعًا: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ

﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وبالمقابل فإن من تطع منهن تؤتى أجرها مرتين، ليس في الدنيا، وعلى حساب أموال جماهير الناس وحقوقهم، كما يحدث في دوائر الزعامات الوضعية، وإنما في الآخرة عند اللَّه سبحانه: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، على العكس، فإنهن في الدنيا يتلقين المزيد من التضييق والحصار المعاشي، ويتعمد الرسول ﷺ أن يحيا معهن على الكفاف المر القاسي، حتى إذا وجد منهن بوادر الاعتراض، أمره القرآن أن يخيرهن بين الطلاق وبين البقاء مع الحياة الخشنة الصعبة التي يعرفها الجميع، فيخترن الثانية لأن فيها رسول اللَّه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

القرآن الكريم عندما يحدثنا عن هذا الخطاب الحاسم، الصارم، المستقيم كالصراط.. هذا الخطاب الذي يحمل أمر اللَّه سبحانه، إلى رسوله وعبده الكريم ﷺ، بكل ما يحمله من جدية ومسؤولية وتهديد ووعيد.. فإنما يمس - فيما يمس - هذه المسألة الجوهرية في حياة الأمم، وبصيغة إنذار

من الدرجة القصوى، تحمل مفرداته، ونبرته، ومناخه التعبيري، أقصى درجات التحذير من أي انحراف، أو تجاوز، أو ميل، مهما دق أو خفي، عن التعاليم الصارمة القادمة من فوق!

هذا هو أحد الفروق الحاسمة بين ما يقوله ويفعله الوضعيون، أرباب المصالح والأهواء والظنون، وما يتلقاه ويقوله ويفعله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. وهو فارق يكفي وحده لكي نعرف الخسارة الكبرى لقطعان الضالين الأذلاء، المستلبين، السائرين وراء الأرباب المزيفين، والمتألهين في الأرض، ولكي نعرف - في المقابل - الكسب العظيم المشرف لكل المنتمين لشريعة اللّه، الملتزمين تعاليم أنبيائه الصديقين عليهم الصلاة والسلام.

هناك الكذب والانحراف والتخبط والتضارب والالتواء والضلال والخسران المبين، وهنا الصدق والاستقامة والوضوح والانسجام والهدى والكرامة والصراط الذي يقود إلى الهدف عبر أقصر المسافات وأكثرها وضوحًا واعتدالًا واستواءً..

ونعرف عند ذاك ما الذي تريد أن تقوله كلمات اللّه وهي تتحدث عن هؤلاء الأرباب المتقلبين من الوضعيين، وتحذر من الانزلاق إلى مصائدهم في الوقت نفسه فهم ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [النجم: ٢٣]، بينما يتبع المؤمنون الهدى الآتي من عند اللّه ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم

مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣]. وهم - أي الأرباب - يقيمون مناهجهم على الأسماء والقيم والرموز الموهومة المجردة عن الفاعلية والتي لا تملك قدرةً أو سلطانًا: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم: ٢٣]، بينما يقيم الأنبياء - عليهم السلام - مناهجهم على القيم والضوابط والمعايير والتعاليم القادمة من عند اللّه الواحد، المسيطر، المريد، العالم، الخبير، القوي، القادر على الفعل والخلق بقوة الكلمة..

إن المفكر الوضعي يتمحض لنفسه، لمصلحته، لأهوائه وظنونه، بينما يتمحض النبي للّه وحده، فلا يكون له من الأمر شيء، إنما هو البلاغ المبين وحده.. الإنذار والبشارة.. الإيضاح والتفصيل.. وليس له بعد ذلك أيما شيء: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة: ٩٩]، ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥]. إن الرسول هو المنفذ لكلمة اللّه في الأرض.. المبعوث بتعاليمه إلى العالم.. والوسيط الصادق الأمين بينه وبين الإنسان.

وإذا كان المفكر الوضعي، بسبب من موقعه الفوقي، وانخداع جماهير المغفلين بدعوته الكاذبة، يُغير هنا ويُبدل هناك؛ لتحقيق مصلحة أو إحكام قبضة، أو مُمالأة سلطان،

أو تجاوز هزيمة أو خسارة، فإن النبي ليس له - وحاشاه - شيء من هذا كله، وهو حتى عندما يجتهد الرأي - أحيانًا - فإنه لا يجتهد لنفسه، وإنما للّه، وللناس الذين حمل أمانة دعوتهم إلى الصراط.. إنه ينسلخ عن ذاته بالكلية ويتمحض للآخر، مستعينًا بهدي اللّه، فإذا ما حدث وجاء اجتهاده هذا قبل أوانه، أو ذهب إلى غير موقعه، تنزّلت كلمات اللّه في اللحظة المناسبة، بكل الحسم والصرامة اللتين وقفنا عند بعض نماذجهما، لكي تقول للنبي: كلا! فإنه ليس لك من الأمر شيء!

إنه الفارق الكبير بين أخلاقية المُتسلِّطين من قادة الفكر وأرباب المذاهب والفلسفات والدعوات الوضعية، وبين أخلاقية الأنبياء.. رسل اللّه إلى البشرية، عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ومرة أخرى، وثالثة، وعاشرة.. فإن هذا الفارق وحده يكفي للتحذير.. يكفي لكي يقول للناس: انتبهوا.. احذروا الخدعة.. يكفي لكي يرسم طريقين كل منهما يمضي إلى هدف، أحدهما ينتهي عند الشيطان، والآخر يؤول إلى اللّه سبحانه.

* * *
* *
*

(٢)

والشواهد كثيرة.. على التلاعب بالعقائد والأفكار إلى درجة التناقض والعبث بسبب الاندفاع مع الأهواء والظنون، وملاحقة المصالح والضمانات والاعتبارات الجزئية الموقوتة، واعتماد كل وسيلة للوصول إلى الأهداف..

كلنا يذكر الفيلسوف الألماني (الكبير!) هيغل، صاحب التفسير المثالي للتاريخ، والذي كان من أبرز دعاة العرقية الألمانية والتفوق الجرماني.. فلما غزا نابليون بونابرت ألمانيا، بعد أن اكتسح مساحات واسعة من أوربا، اعتبره هيغل المعبر عن العقل الكلي، المهيمن على مقدرات الصيرورة التاريخية.. و (البطل) الذي جاء (على حصانه الأشهب) لكي يصنع التاريخ.. رغم أن عسكرية نابليون، وما ادّعاه من التبشير بمبادئ الثورة الفرنسية في الوقت نفسه، يتناقضان في الأساس مع نمو القومية الألمانية وفلسفتها وأهدافها!

وكلنا يذكر ما فعله فيلسوف الاجتماع (الكبير!) أوغست كونت عندما بعث رسالة بعنوان (رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي) إلى محبوبته (كلوتيلد دي فو) يغير رأيه في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغييرًا تامًّا؛ فقد كان منذ أشهرٍ يكتب إلى تلميذه (ستوارت مل) فيرى أنه ليس في المرأة أمل ولا خير، أما الآن فهو يرى المرأة عنصرًا أساسيًّا في الإصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه! والسبب

في هذا الانقلاب الفجائي من النقيض إلى النقيض هو أنه في الأولى كان يحب امرأة قبلت الزواج منه ولكنها خدعته فدفعته إلى محاولة الانتحار والالتحاق بمستشفى المجانين حينًا من الدهر، وفي الثانية أحب فتاة لم يتح له الزواج منها لكنها منحته نفسها وأحبته حبًّا صادقًا[١].. وهكذا أصبح الحكم على جنس المرأة مستمدًّا من خبرة الفيلسوف الشخصية ومطارحاته ونزواته!

ويذكر بعض المتابعين - كذلك - تلك الطريفة التي جرت بين (لينين) قائد الحركة الشيوعية أيام صراعها ضد السلطة القيصرية، وتابعه الأمين (ستالين) - وكلاهما، كما هو معروف، زعيمان اشتراكيان كبيران! - ففي إحدى أعوام العمل السري في جورجيا، اضطر ستالين الذي كان يتستر تحت اسم (كوبا) أن يلجأ متخفيًا من مطاردة البوليس، إلى كوخ ناءٍ يمتلكه أحد أقارب زوجته، وهناك اختار الزعيم الثوري زوجة صديقه القروي المسكين عشيقة له، ولم يكتفِ بذلك، بل اغتصب أخت القروي ولم تكن قد بلغت من العمر عامها الرابع عشر، ليس هذا فحسب، بل إنه، وقد احتاج الحزب إلى المال، استطاع عن طريق الرفيق لاجوس كوريسكو، بائع المخدرات والأسلحة، وعن طريق العاهرات، أن يجمع الكثير من المال، ولما سمع (لينين)

---

(١) طه حسين: ألوان (ص١٥٤)، (دار المعارف، القاهرة - ١٩٥٨م).

بذلك كتب إليه يعنفه ويلومه قائلًا: إنني لا أوافقك على تلطيخ سمعة الحزب وتلويث اسمه بالدعارة والفسق الذي أصبح تجارة رائجة، وإن كنت لا أنكر أننا في أشد الحاجة إلى أموال لتغذية الخلايا الثورية.. وسيكون من المخجل للحزب إذا طالعتنا صحيفة القيصر يومًا بإعلان مكتوب بالخط الكبير: زعيم البلاشفة القوقازيين يعمل قوَّادًا!

لكن (لينين) لم يشأ - هو الآخر - أن يتخلى عن هذا المورد الذي يخدم مالية الحزب فاقترح على (ستالين) أن يجعل نفسه بمنأى عن هذه الأماكن المكشوفة، وأن يجمع المال عن طريق كوريسكو، وبذلك يكون بمنجاة من شبهة الاتصال بالفاجرات. أليس (لينين) هو نفسه صاحب مبدأ: (اكذب واكذب واكذب حتى يصدقك الناس)؟ فماذا كان جواب ستالين؟ إنه لا يرى أي خطأ في استغلال محترفات البغاء، وأنه يساعد هاتيك الفتيات على التمتع بالحياة تحت ظروف أفضل بكثير من الظروف التي كن يعشن تحتها من قبل؛ لأنهن يشفقن من عَرْض أجسادهن في الشوارع خوفًا من البوليس، أما اليوم فإنهن يتمتعن بالحياة الهادئة في منزل اكتملت فيه أسباب الراحة والسعادة، ومع ذلك فإن (ستالين) لم يختلف مع (لينين) في أن افتضاح هذه الحيلة سوف يُلحق بالحزب ضررًا كبيرًا؛ ولذلك وعد بتنظيم الأمور[1]، وأغلب

---

(١) برنارد هاتون: الحياة الخاصة لجوزيف ستالين (ص١٧ - ٢٧، ٢٨).

الظن أن (لينين) اقتنع أخيرًا بمنطق تلميذه البار ما دام أن كل الطرق تؤدي إلى.. المال..!

كما أن المتابعين يذكرون ما لحظته المدرسة الفرنسية الخاصة التي استقدمها (ستالين)، أيام زعامته للاتحاد السوفيتي، لتعليم أبنائه. فلقد اكتشفت نسخة من رواية (الحرب والسلام) لتولستوي وعلى هوامشها ملاحظات بخط (ستالين) تحمل معنى التحامل على تمجيد الأبطال، وتكرار جملة (خطأ اشتراكيًّا)![1].

فهل ثمة في التاريخ المعاصر، بل ربما في مساحات واسعة من التاريخ البشري، غير هتلر وموسوليني، من مَارَسَ في سلوكه وسياساته مفهوم البطولة الطاغية وشَرِبَ كأسها حتى الثمالةَ مثل ستالين؟ والمجازر الجماعية التي نفذها؟ وحصاد الملايين من أبناء أمته، ما كانت في جانب من جوانبها سوى تعبير عن هذا التفرد الطاغي الذي يصل على يدي ستالين حد التأله وليس مجرد البطولة، ولم تكن التصفيات الرهيبة التي كانت تأتي على شكل موجات إثر موجات، مجرد حماية للثورة ومبادئها من الأخطار والتحديات؛ لأن كثيرًا من الذين ذُبحوا كانوا - باعتراف القيادات الحزبية والسياسية الروسية - من خيرة أبناء الحركة

---

(١) انظر بالتفصيل: أحمد بهاء الدين: أفكار معاصرة (ص٢٨٦ - ٢٩٩) (كتاب الهلال، القاهرة - ١٩٧٠م).

الشيوعية وزهرة روادها وصانعيها، وكان بعضهم الآخر من أخلص أصدقائه وأقرب المقربين إليه، بل إن إحدى الضحايا كانت زوجتَهُ الثانيةَ نفسَها!

ومع ذلك كله فإن (ستالين) وهو يجلس إلى مكتبته الخاصة يطالع في رواية (الحرب والسلام) ينسى هذا كله، ويعلق بين صفحة وأخرى على أحداث الرواية متحاملًا على تمجيد الأبطال معتبرًا إياه خطأ اشتراكيًّا، هل من تناقض بين الفكر والممارسة، أو السلوك، يمتد من الطول إلى الطول، كهذا التناقض؟

الشواهد كثيرة[1]، وبعضها يتجاوز بالمرء حافة الرفض والإنكار إلى حالة القَرَفِ والاشمئزاز بسبب هذا التلاعب في مفردات الفكر والسلوك.. هذه الثنائية بين القول والفعل.. هذا الازدواج بين الفكرة والواقع والذي مارسه كثير من الوضعيين..

* * *
* *
*

(١) للمزيد انظر: المؤلف: حوار في المعمار الكوني (دار الثقافة، الدوحة - ١٩٨٧م).

(٣)

وما لنا ألا نرجع - كرة أخرى - إلى عالم النبوة الوضيء، المتوحد، النظيف؛ حيث يصير القول والفعل شيئًا واحدًا، وحيث تلتحم الفكرة والواقع في كُلٍّ معماري متناسق باهر، وحيث يغدو السلوك انعكاسًا أمينًا صادقًا للمبادئ والأفكار، وحيث يجيء التحذير الإلهي في اللحظة المناسبة تمامًا لأيما محاولة قد تحدث ثغرة ما، مهما دقت وخفيت، ومهما كانت النيات المخلصة التي تكمن وراءها، في النسيج الطاهر المتوحد لمعطيات الرسل والرسالات.

هنا حيث لا تغيير مطلقًا في المبادئ، حتى ولو ارتطمت بعنف، ليس بمصلحة أو رغبات النبي، فهذا أمر مفروغ منه، وهو لم يخطر على بال أحد من أنبياء اللَّه الكرام - عليهم الصلاة والسلام - وإنما بمطالب الرسالة نفسها في مرحلة ما، ومن أجل المصلحة العامة للأمة أو الجماعة التي تنتمي إليها.

لا تغيير ولا تبديل.. إنما هو الحق الواحد، والمقياس الواحد، والعدل الواحد الذي كتب على الرسل أن ينوءوا بحمله الصعب وأن يحملوا أمانته الباهظة، وأن يمضوا به إلى آخر لحظة من حياتهم على الصراط.

ولنقرأ معًا هذا الخطاب القرآني لرسول اللَّه ﷺ ثم لنتأمل (المغزى) الذي يتشكل في كل حرف أو كلمة فيه مما يبدو - بحقٍّ - قمة تتضاءل دونها سائر القمم الأخرى في مجال

التعامل العادل كالصراط مع الإنسان أيًّا كان موقعه في الزمن أو المكان أو الطبقة أو العرق أو المكانة أو - حتى - الدين!

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

[النساء: ١٠٥ - ١١٣].

وفي هذه الآيات، يقول الشهيد سيد قطب:

« تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيرًا ولا تعرف لها

البشرية شبيهًا. وتشهد - وحدها - بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند اللَّه؛ لأن البشر - مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم - لا يمكن أن يرتقوا - بأنفسهم - إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات، إلا بوحي من اللَّه.. إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تحويها جعبتهم اللئيمة، على الإسلام والمسلمين.. في الوقت الذي كانوا فيه ينشرون الأكاذيب، ويؤلبون المشركين، ويشجعون المنافقين، ويرسمون لهم الطريق، ويطلقون الإشاعات، ويضللون العقول، ويطعنون في القيادة النبوية، ويشككون في الوحي والرسالة، ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل، في الوقت الذي يؤلبون عليه خصومه ليهاجموه من الخارج. والإسلام ناشئ في المدينة، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس، ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم، تُمثل خطرًا حقيقيًّا على تماسك الصف المسلم وتناسقه. في هذا الوقت الحرج الخطر.. كانت هذه الآيات كلها تتنزل على رسول اللَّه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة لتنصف رجلًا يهوديًّا اتهم ظلمًا بسرقة، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول ﷺ وجنده، في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة!

.. إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام - وإن كانت تبرئة بريء أمرًا هائلًا ثقيل الوزن في ميزان اللَّه إنما كانت أكبر من ذلك، كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيًّا كانت الملابسات والأحوال، وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد وعلاج عناصر الضعف البشري فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية في كل صورها حتى في صورة العقيدة، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس، وإقامة هذا المجتمع الجديد، الفريد في تاريخ البشرية، على القاعدة الطيبة النظيفة الصُّلبة التي لا تدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية، والتي لا تتدحرج مع الأهواء والميول والشهوات.

ولقد كان هناك أكثر من سببٍ للإغضاء عن الحادث، أو عدم التشديد فيه والتنديد به وكشفه هكذا لجميع الأبصار، بل فضحه بين الناس، على هذا النحو العنيف المكشوف، كان هناك أكثر من سبب لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم وتحكم، ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي التي يرجع إليها هذا المنهج! كان هناك سببٌ واضحٌ عريضٌ، إن هذا المتهم (يهودي) من (يهود)، يهود التي لا تدع سهمًا مسمومًا تملكه إلا أطلقته في حرب الإسلام وأهله، والتي يذوق منها المسلمون الأَمَرَّيْنِ.. والتي لا تعرف حقًّا

ولا عدلًا ولا نصفة، ولا تقيم اعتبارًا لقيمة واحدة من قيم الأخلاق في التعامل مع المسلمين على الإطلاق!

وكان هنالك سببٌ آخر، وهو أن الأمر في الأنصار الذين آووا ونصروا والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الضغائن، بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي يبعد شبح الشقاق! وكان هنالك سببٌ ثالث هو عدم إعطاء اليهود سهمًا جديدًا يوجهونه إلى الأنصار، وهو أن بعضهم يسرق بعضًا ثم يتهمون اليهود! ولا يدعون هذه الفرصة تفلت للتشديد بها.

ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله.. أن يُقام ميزان العدل في الجماعة المسلمة لتحكم بين الناس مجردًا من جميع الاعتبارات الأرضية، والمصالح القريبة الظاهرة، والملابسات التي يراها الناس شيئًا كبيرًا لا يقدرون على تجاهله!

.. ومن ثَمَّ لم يكن هناك مجْالٌ للباقة! ولا للكياسة! ولا للسياسة! ولا للمهارة في إخفاء ما يُحْرِج، وتغطية ما يسوء. ولم يكن هناك لمصلحة الجماعة المسلمة الظاهرية! ومراعاة الظروف الوقتية المحيطة بها! هنا كان الأمر جدًّا خالصًا، لا يتحمل الدهان ولا التمويه! وكان هذا الجد هو أمر هذا المنهج الرباني وأصوله، وأمر هذه الأمة التي تُعدّ لتنهض بهذا المنهج وتنشره، وأمر العدل بين الناس في هذا المستوى الذي لا يرتفع إليه الناس إلا بوحي من اللَّه.

وينظر الإنسان من هذه القمة السامقة على السفوح الهابطة، في جميع الأمم على مدار الزمان، فيراها هنالك في السفوح، ويرى بين تلك القمة السامقة والسفوح الهابطة صخورًا متردية، هنا وهناك، من الدهاء والمراء والسياسة والكياسة والبراعة والمهارة ومصلحة الدولة ومصلحة الوطن ومصلحة الجماعة، إلى آخر الأسماء والعنوانات، فإذا دقق الإنسان فيها النظر رأى من تحتها الدود!.. »[١].

* * *
* *
*

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢١٤ - ٢١٩)، (باختصار عن ط٣).

(٤)

إنها عقيدة الحق والعدل التي لا تميل ولا تجور مهما تغيرت أبعاد ونسب العلاقات التاريخية، أو العقدية، بين الأطراف كافة.

فماذا تساوي، إزاء هذه القمة المتعالية، كل دعاوى الفلاسفة والقادة والمفكرين الوضعيين؟ ماذا تساوي مثالية هيغل ووضعية كومت ونضال لينين وستالين، سوى أنها محاولات للتحرك عند السفوح الهابطة التي تستسيغ التبديل والتغيير، والالتفاف على الحقائق، أو قلبها إذا اقتضى الأمر، والتي تنسج أفكارها في ضوء المصالح والأهواء والظنون، والتي لا ترى مثلبة أو عيبًا وهي تناضل القياصرة والظالمين بأموال البغايا وأرصدة القوادين!!

* * *
* *
*

ما يريده هذا الدين

(١)

عندما يُتابع أحدنا في سورة النساء الآيات (٢٧ - ٣١) ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧ - ٣١].

عندما يُتابع هذا المقطع من سورة النساء يبرز قبالَتَهُ المجتمعُ الذي يريده اللّه ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام): أقصى درجات النظافة، والاعتدال، والتوازن، والمرونة، والرحمة، والاحتشام، والتزام الصراط في كافة الفاعليات والممارسات.

إن كتاب اللّه، بآيات فحسب، يضع معالم واضحة، ثابتة، محددة، وهي في الوقت ذاته شاملة، ممتدة، تملك القدرة - في أية لحظة تاريخية - على أن تصنع مجتمعًا متوازنًا سعيدًا.

إن المسألة ليست في مجلدات من التفاصيل القانونية والتشريعية، ولكنها في القواعد والأصول الكبيرة الثابتة التي تصبغ المجتمع كله.. تضع بصماتها عليه، وتُميزه عن سائر المجتمعات. إنها - قبل هذا - أوامر اللَّه سبحانه، وأحكامه، وتعاليمه التي تعلو على الظنون والنسبيات والأهواء، وتصدر عن العليم الحكيم الخبير الذي يعلم من خَلَقَ فيقرر له ما يصلح وينهاه عما لا يصلح، ويضعه بالتالي على الصراط الذي يجتاز به رحلة الحياة الدنيا متوازنًا، معتدلًا، آمنًا وسعيدًا.

بينما (يريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلًا عظيمًا).. كل المُشرعين الذين يحكمون بالأهواء والظنون.. كل أصحاب المصالح والشهوات والأنانيات الفردية والطبقية والحزبية والطائفية والعرقية.. كل المتسلطين على مقدرات الإنسان في العالم لتحقيق منفعة خاصة أو كسب عاجل.. كل الآلهة والأرباب والطواغيت والأصنام التي استعبدت الناس لأنفسها من دون اللَّه.. كل الذين لا يهمهم الإنسان من حيث هو إنسان، وإنما تهمهم مواقعهم الفوقية المتسلطة على رقاب العباد والتي يحققون من خلالها ما تمليه عليهم المصالح والمنافع والأهواء والظنون والشهوات.. كل هؤلاء الذين غطوا مساحة واسعة ممتدة من تاريخ البشرية، وحكموا بالظلم والانحراف والحرمان

والآلام والمتاعب والأحزان على حشود هائلة من بني آدم.. يريدون لهذا كله أن تميلوا الميل العظيم الذي حذّرت منه الأديان، والذي جاءت - ابتداء - لكي تكسر حلقته المفرغة وتفتح الطريق العدل كرّة أخرى أمام الإنسان من أجل أن ينطلق على الصراط لمعانقة أهدافه والتحقق بها.

ليس هذا فحسب، بل إن الآيات الكريمة ترسم تقابلات أخرى بين ما يريده اللَّه سبحانه وما يريده الطواغيت والأرباب، إن اللَّه الذي هو أعلم بمن خَلَقَ يعرف ضعف الإنسان فيمنحه التشريع والتعاليم التي تتناسبُ وتكوينَهُ هذا، بينما يمضي الطواغيت لكي يستغلوا هذا الضعف، وبدلًا من أن يرعوا حقه بالمزيد من المرونة والتكييف والسماحة، إذا بهم يدوسون أكثر على رقاب الناس، يُحمِّلونهم بأكثر مما تطيقه قدراتهم.. يُحيلون حياتهم إلى كدح موصول وسعي لاهث لا يقطفون شيئًا من ثماره؛ لأن هذه قد رصدت ابتداء لكي تكون من نصيب السادة المتسلطين.

إن جوهر العدل بمعناه العام وبخصوصياته الاجتماعية، يتشكل ها هنا، فحيثما شرع اللَّه سبحانه للإنسان منحه العدل، وحيثما شرع له الكهنة والسدنة والطواغيت من المفتئتين على حق اللَّه وحده، انتفى العدل مهما غُطيت المحاولة وزُينت بالدعاوى والأيديولوجيات.

إن رحمة اللَّه المتمثلة بتشريعه العادل تقف قبالة الباطل

وتستجيش في المؤمنين روح التواد والتكافل من أجل ألا تؤكل أموالهم بالباطل.. بل تمضي إلى اعتبار تجاوز مطالب العدل قتلًا للنفس وانتحارًا جماعيًّا.. ثم هي مع استجاشة أقصى درجات الدفع والرضا والتكافل والتصعيد، تحذر كل الذين يمارسون ظلمًا أو عدوانًا على هذا الحق العام أو القاعدة العريضة، بأنهم سوف يصلون نارًا، وما أيسر ذلك على اللَّه جل في علاه.. ومرة أخرى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]!

أي حرص هذا على أن تكون حياة الجماعة المؤمنة في العالم نظيفة عادلة سمحة مستقيمة؛ حيث ينتفي الظلم والعدوان، ويسود العدل والتكافل والسماحة والاستقامة.. إنها رحمة اللَّه وحده بهذا الكائن الذي طالما تجاوز فرصته الإلهية هذه، فوقع في براثن شياطين الإنس الذين يستهوونه بألف مكر ومكر.

إنه إذن الفارق الحاسم بين الصراط المستقيم، المرسوم بعلم اللَّه المطلق، ورحمته التي لا حدود لها، وبين الخطوط الملتوية، المتعرجة، المنحرفة التي يرسمها أصحاب المصالح والشهوات والعلم النسبي القاصر، المحدود.. وإنه لفارق كبير.. كبير.

* * *

(٢)

والذي يقرأ الآيات المذكورة من سورة النساء يجد فيها مفردات مترعة عطفًا ونداوة ورحمة، تنضفر جميعًا في نداء إلهي بر رحيم بهذا المخلوق الضعيف العاجز الذي يتخبط في الطريق ولا يكاد يتبين مصلحته وسعادته.. هذا الكائن الذي يأكل أمواله بالباطل، والذي يقتل نفسه، والذي تستعبده الظنون والرغبات الخاطئة والأوهام.. ثم ما يلبث الذين يتبعون الشهوات من السدنة والطواغيت والأرباب أن يجرونه بعيدًا في دوامة الانحراف والضلال وأن يميلوا به الميل العظيم الذي حذّرت منه النبوات والأديان والذي أشارت إليه كلمات اللّه.

فها نحن إزاء مفردات (التوبة) و (التخفيف) و (الرضا) و (الرحمة) و (التكفير) و (الكرم)، تصدر عن اللّه سبحانه نداءً ووعدًا، وتيسيرًا لرحلة الحياة الدنيا، وضمانًا للفوز والنجاة في الحياة الأخرى، يقابلها في الطرف الآخر: (الشهوة) و (الميل) و (الباطل) و (القتل) و (العدوان) و (الظلم) و (النار) و (الكبائر) و (السيئات).

والإنسان بسبب مما أراده له اللّه سبحانه من كرامة وسيادة على العالمين.. حُرٌّ في اختياره هذا الطريق أو ذاك.. ومسؤوليته الأخلاقية ترتب مصيره - بإرادة اللّه وحده - على اختياره هذا.. والأديان عندما تتنزل تدل الإنسان على الطريق وتحذره من السُّبل التي تتفرق به.. وما على

الأنبياء (عليهم السلام) بعد ذلك سوى البلاغ.. ويبقى الإنسان حرًّا عند ذلك في اختيار الطريق، فليس لأحد حتى النبي ﷺ نفسه أن يكون عليهم مسيطرًا أو جبارًا أو وكيلًا..

إلا أن الأمر الذي يجب ألا يغيب عن البال لحظة واحدة.. الحقيقة الواضحة الساطعة التي لا تكسفها حشود الأباطيل والأضاليل والمصالح والأهواء.. هو أنه ليس ثمة للخلاص والسعادة والتوازن والعطاء والتوحد والفرح والسكينة والائتمان سوى طريق واحد هو طريق اللَّه، وأن ما عداه لن يقود إلا إلى الطرق المسدودة والشقاء والانحراف والتخلف والتمزق والحزن والقلق والتشتت والدمار.

هذه الطرق أو المناهج أو الشرائع التي تعد بالعشرات والمئات والألوف عبر تاريخ البشرية، والتي تغطي على خوائها وتعاستها وتناقضاتها بألف وجه أو ديكور جميل، والتي تتزين وتتبهرج وترفع نداءها المُغري لكي تخدع به الإنسان وتسوقه إلى الحظيرة.. هذه الطرق كلها، بما أنها تصدر عن أصحاب الشهوات، تقود - بالضرورة - إلى الميل العظيم بكل ما تتضمنه الكلمة من قيم ومعانٍ ومعطيات هي في نهاية التحليل وبدايته ضد الإنسان والموقف البشري في العالم، هذه الطرق كلها، يقابلها طريق واضح، بيِّن محدد، مستقيم كالصراط، هو طريق اللَّه الذي يعلم من خَلَق، والذي هو أدرى بخلقه، وهو اللطيف الخبير.

فمن أجل الإنسان الحائر في هذا العالم.. من أجل الإنسان التائه الضال في طرائق الشيطان.. من أجل الإنسان المستعبد بأهواء أصحاب المصالح والشهوات.. من أجل الإنسان الذي مالتْ به الطواغيت والأرباب عن الطريق السوي، ميلًا عظيمًا.. من أجل الإنسان وحده يجيء النداء الإلهي رخيا، عذبًا، عطوفًا، ودودًا، رحيمًا، متضمنًا كل تلك المفردات ذات الدلالة الإنسانية الندية لكي يأوي إليها الإنسان، مداويًا في ظلالها عذابه وآلامه وجراحاته، مستقبلًا هبة من نسيم الرحمة والاستقامة والطهر والفرح والنجاة، متحررًا من كل ضغوط الاستعباد والشرك، متمردًا على الصنميات والوثنيات، ثائرًا على كل الطواغيت والوضّاعين والأرباب، مُفيئًا إلى نفسه: إنسانًا حرًّا، متفردًا، سيدًا على العالمين.

* * *
* *
*

(٣)

والمقطع المذكور من سورة النساء يربط، شأن السياق القرآني كله، بين مصيري الدنيا والآخرة، فهي ليست الثنائية أو الانقطاع أو التعارض الذي عرفته الأديان المحرفة والشرائع الوضعية الضالة بين الأرض والسماء، أو الدنيا والآخرة، أو الفناء والخلود.

إن الذين يستجيبون للنداء ويمضون إلى أهدافهم على الصراط سيكسبون الجولة هنا وهناك، وسيحيون في الأرض حياة هانئة، متوازنة، سعيدة، معتدلة، مطمئنة.. ثم لما يجئ يوم الحساب يدخلون إلى مصائرهم مُدخلًا كريمًا.. والذين يرفضون النداء، ويختارون السبل والطرائق المعوجة ويقبلون على أنفسهم أن يستعبدوا للأرباب والطواغيت وأصحاب الشهوات، سيخسرون الجولة هنا وهناك، وسيحيون في الأرض حياة شقية، مضطربة، جانحة، قلقة، ممزقة، وسيميل بهم الذين يمسكونهم من قرونهم ميلًا عظيمًا عن كل المنطلقات والقيم والمواضعات والأعراف المتوازنة، العادلة، الثابتة المستقيمة.. ثم لما يجئ يوم الحساب يدخلون مدخلًا مذمومًا، ويَصْلَوْن نارًا.. لا انفصال أو تغاير في المصير بين الدنيا والآخرة، وما قد يبدو للوهلة الأولى، وعبر شرائح زمنية محدودة مهما طال بها المدى، من تحقق بالسعادة، والتفوق لأصحاب السبل المتفرقة،

وتعاسة وانكسار لأصحاب الصراط الواحد إنما هي حالة موقوتة تنبثق عن شبكة النواميس التي قدّر اللّه سبحانه أن يتحرك التاريخ البشري وَفْق معطياتها، ولكنها ليست حالة أبدية، كما أنها ليست حالة شاملة، فهي سرعان ما ستؤول إلى الانحسار والخذلان بمجرد توفر البديل الإيماني الذي يعرف كيف يستكمل الأسباب، كما أنها حتى وهي تتحقّق بالعلو في هذا العالم، فإنه في نهاية الأمر علوٌّ ظاهري، قد يغطي بمنطق التكاثر المادي وحده ما تتضمنه التجربة نفسها، في الطبقات الأبعد، من النفس والمجتمع، من تعاسة وتمزق وازدواجية وقلق وتحطم ودمار..

ويكفي أن ننظر إلى ما أصاب حالات التفوق تلك عبر التاريخ البشري وكيف أنها ما لبثت أن انطوت جميعًا وأصبحت خبرًا وأحاديث.. ويكفي كذلك أن ننظر إلى ما يعانيه إنسان، ومجتمعات الحضارة الغربية المتفوقة الراهنة، فيما يقوله ويعلنه أبناؤها أنفسهم، من مواقع الفكر والسياسة والعقيدة والإعلام[1]، لكي ما نلبث أن نطمئن إلى أن (السُّبل) مهما امتد بها المطاف لا يمكن إلا أن تزول

---

(١) تحدثنا عن هذه المسألة بالتفصيل في مؤلفات أخرى وبخاصة (تهافت العلمانية) ولكننا نشير هنا إلى كتاب أريك فروم: (الإنسان بين الجوهر والمظهر) كواحد من أحدث الإصدارات في هذا المجال (ترجمة سعد زهران)، (سلسلة عالم المعرفة، الكويت - ١٩٨٩م).

من خرائط التاريخ، ولا يمكن - كذلك - إلا أن تتضمن ذلك القدر الكبير من التعاسة والشقاء والآلام التي لا ينقذ الإنسان منها، ولا يشفع دونها، إلا ذلك النداء الإلهي الذي يأخذ بيد الإنسان بالرحمة والتخفيف والرضا والكرامة.

هذا إلى أن الحياة الدنيا، رغم ما يمنحه إياها الدين الحق من ثقل ومكانة، ليست هي الحياة الأخيرة، ولا الحياة الدائمة الممتدة.. إنما هي محطة عبر طريق طويل، محطة للاختبار والابتلاء فحسب.. أما محطة الاستقرار الأبدي؛ حيث يختم على المصير فإنها هناك.. هناك حيث اليوم الواحد كألف سنة مما نعد، وحيث تبدو الحياة الدنيا على امتدادها في النفس والتاريخ حفلًا للتعارف، قد يستغرق دقائق أو ساعات، وقد يكون من عجلته وتصرمه أن المرء ينسى بعده - بلحظات - كل الأسماء والشخوص والوجوه التي تعرّف عليها قبل قليل!

* * *
* *
*

(٤)

والمقطع المذكور من سورة النساء، بما أنه يصدر عن اللَّه سبحانه الذي يعرف ضعف الإنسان، واستعداده لقبول الخديعة، والذهاب مع أصحاب الشهوات إلى آخر المطاف لكي يميلوا به الميل العظيم.. القرآن الكريم من أجل أن يقطع الطريق على هؤلاء فيحرر الإنسان من الأشراك التي نصبوها له في كل منعطف أو زاوية، يستجيش كل قوى الدفع في النفس البشرية، يضرب على كل الأوتار الحساسة في تكوين الإنسان، كما أنه يعتمد أقصى درجات الواقعية والمرونة لتحقيق مهمته هذه في إنقاذ الإنسان والعودة به إلى الصراط.

إنه يفتح باب التوبة على مصراعيه لكي لا تكون الخطيئة التي تحيط بالإنسان دافعًا للإيغال في الضلال ومتراسًا يصده عن العودة ثانية إلى الطهر والاستقامة، وإذا كانت الخطيئة في العديد من المذاهب والأديان المحرمة أمرًا كليًّا يحيط بالإنسان ويصده عن الغفران، فإنها في الإسلام تتجزأ، إذا صحّ التعبير؛ لكي تظل المنافذ مفتوحة يدخل منها النور والهواء الطلق، وتظل الحسنات تلاحق السيئات فتمحوها بل إن الحسنة الواحدة تمحو عشرًا من السيئات، ويظل الإنسان المسلم يحس في أعمق نقطة في وجدانه أنه غير منفي من ملكوت اللَّه حتى لحظات الاختيار الحر الأخيرة، وأن بمقدوره أن يرجع إلى الصراط حيثما أراد.

والقرآن الكريم بواقعيته ومرونته، وتطابق تعاليمه وتوجهاته مع حجم الإنسان ونسيجه - يركز على اجتناب الكبائر، أما الصغائر، أما اللمم، الذي ليس بمقدور الإنسان إلا أن يقع فيه ويمارسه المرة تلو المرة، فإن الآيات لا تشير إليه ها هنا إنما تتحدث عنه في موضع آخر وفي معرض الغفران للذين أحسنوا: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣١، ٣٢]. المهم أن يتصدى الإنسان للكبائر، أن يستجيش كل طاقاته للتفوق عليها، وحينذاك ستكون هذه الوقفة فرصة لتلقي الثمن الجزيل: التكفير عن السيئات ودخوله منتصرًا مرفوع الرأس يوم القيامة، من بوابة المُدْخل الكريم.

وكتاب اللّه يعرض هذا التقابل المؤثر بين إرادة اللّه وإرادة أصحاب الشهوات ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧]، فكأنه تقابل بين حالتين أو وضعين، تنفتح في أولهما الأبواب وتنفتح حتى ليصير بوسع المرء الخاطئ أن يرجع إلى الصراط من أي باب شاء، وهي جميعًا على مرمى حجر منه، ذلك أن إرادة اللّه سبحانه شاءت أن يتوب على

الإنسان الذي (خُلق ضعيفًا) بسبب من تلبس روحه بكثافة الطين وثقله وشده.

أما في الحالة الثانية فتنغلق المنافذ والأبواب ويجد الإنسان نفسه مسوقًا بقوة لا تُقهر إلى مزيد من الانحدار، مسلوبًا باتجاه نداء أصحاب الشهوات، مستعبدًا حتى آخر نقطة في وجدانه لإغراءات الطغيان، يائسًا - حتى في حالة المحاولة - من أي خيط، من أي بصيص نور يرده إلى الطريق ويكفّ اندفاعه المخزي صوب القعر حيث الميل العظيم الذي يرسمه له الوضّاعون والأرباب.

ومع باب التوبة المفتوح ذلك التخفيف الإلهي في كل ما يصدر عن اللّه سبحانه من تعاليم وشرائع وإلزامات.. من تحليل أو تحريم.. من مندوب أو مباح أو مكروه.. هذا التخفيف الذي تنعكس ظلاله الندية السمحة على نسيج الإسلام كله.. على تشكيل شريعته التي سميت بالشريعة السمحاء.. هذا التخفيف الذي تتصادى مفرداته في مساحات القرآن، في سوره ومقاطعه وآياته، هذه نماذج منها: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ - ٧]، ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٨].

وهذه الدعوة السمحة للتخفيف تعكس - فضلًا عن ذلك - البعد التحريري لهذا الدين الذي جاء لكي ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ .. ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ولطالما عبث السدنة والوضاعون ومُحرِّفو الأديان بتعاليم اللّه، وهم من أجل أن يشتروا بآيات اللّه ثمنًا قليلًا، ومن أجل أن يستعبدوا الأذلة والأتباع، كانوا يلجؤون إلى مزيد من التقييد.. إلى الإصر التي تنوء به الأكتاف.. إلى جعل الحرام هو القاعدة والحلال هو الاستثناء.. ويجيء الإسلام، مُحررًا مُخففًا، يجيء لكي يخرج بالإنسان المتورط من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده.

ومع (التوبة) و (التخفيف) دعوة للعدل والرضا في التعامل الاجتماعي.. في إقامة مجتمع يسوده الحق والعدل وتنتفي فيه كل صيغ القهر والابتزاز والعدوان والظلم التي يعدها التعبير القرآني - بحق - قتلًا للنفس، وتلك هي حال المجتمعات التي تند عن توجيهات السماء، فليس ثمة بعدها إلا الظلم والعدوان، ويكفي أن ينظر المرء إلى معسكري الرأسمالية والشيوعية اللذين كانا يقتسمان العالم إلى وقت قريب، لكي يرى ما يسودهما من ظلم وابتزاز

وعدوان، والقرآن الكريم في دعوته هذه يمد استجاشته من الخاص إلى العام، ومن الفرد إلى المجتمع، فإذا كان في التوبة والتخفيف يتوجه إلى الأفراد، فهو في دعوته لالتزام الحق والعدل يمضي إلى المجتمعات، وهو في كل الأحوال يجعل النتيجة النهائية المتمخضة تنعكس بصيغة شاملة على الحياة البشرية هنا في الأرض وهناك في السماء.

* * *
* *
*

(٥)

ومن وراء كل الآيات القرآنية الباهرة.. ومن وراء الدفق الإلهي العجيب للتعابير والصور والأفعال التي ينطوي عليها كتاب اللَّه.. ومن وراء كل تعبير أو مثل أو إشارة أو استعارة أو قصة أو أخبار أو سنة أو ناموس أو تشريع أو تكليف.. من وراء كل كلمة وكل حرف، يمكن للإنسان، بمجرد أن يكسر الأقفال عن القلب، ويزيح الرين والصدأ عن الفؤاد والوجدان.. أن يجد إيقاعًا واحدًا، مغزًى متفردًا، هدفًا متميزًا، إشارة ما، تلميحًا بحقيقةٍ هي جوهر كل الحقائق وأساس كل ظاهرة أو ممارسة.

إن كتاب اللَّه يريد أن يضع الإنسان في موقع التوازن، والألفة، والانسجام، مع نفسه، مع الآخرين، مع البيئة، مع الأشياء والخلائق والموجودات.. ومع الطبيعة والعالم والكون.. باختصار.. يريد القرآن، بالعلم الإلهي الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي يعلم السر وأخفى، والذي هو سبحانه أدرى بخلقه.. أن يحقق للإنسان أقصى حالات الوفاق مع الحياة والوجود، وبالمقابل، فإنه يريد أن يبين، بكلماته المعجزة، أن كل الطرائق والمذاهب والتصورات والعقائد الأخرى.. كل المحاولات الوضعية على الإطلاق تريد - عامدة أو غير عامدة - أن تخرج بالإنسان عن هذه الحالة إلى الانحراف، وفقدان التوازن،

وضياع الانسجام، بدرجة أو بأخرى، وأما الأسباب فكثيرة وليس أقلها الجهل والقصور والهوى والتحيز والمصلحة والظن والعجز.. إلى آخره.. مما هو مرتبط في الأساس بحجم القدرة البشرية وطبيعة التكوين الآدمي.

إنه التقابل الذي لا شيء وراءه بين الحق والباطل، والصدق والخديعة، والهدى والضلال، والصراط والانحراف.. باختصار: بين هدي اللَّه وتخبطات العبيد، إن أية آية وقعت أنظارنا عليها، أي مقطع قرآني لامسته بصائرنا، أية سورة استعرضتها أفئدتنا بقدر من التفتح والشفافية الإيمانية والذكاء.. فإننا سنجد أنفسنا في نهاية الأمر إزاء النول الإلهي الذي يروح ويجيء لكي ينسج المغزى نفسه.. يؤكد الهدف ذاته.. وهو أن هذا الدين، الذي هو خاتمة الأديان، وجوهرها، ومُصدِّقها، وجامعها كذلك، إنما يريد أن يجابه كل حالات الضلال البشري التي تتلبس ألف صيغة وصيغة وتتذرّع بالمذهبية والعقائدية والأيديولوجية.. إلى آخره.. لكي تضع الإنسان في حالة انشقاق مع فطرته التي فطره اللَّه عليها، وارتطامٍ بالسنن والنواميس الطبيعية والكونية التي سخّرها له ابتداء.. يجابه هذا كله لكي يخرج بالإنسان كرّة أخرى من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده، ويضعه ثانية وفق الحالة الوحيدة التي لا حالة قبلها

أو بعدها يمكن أن تعدلها، من التوازن والعدل والألفة والوفاق والانسجام، ويكفي أن نقرأ المقطع الذي يتضمن الآيات (١١١ - ١٤٠) من سورة الأنعام لكي يعطينا مثلًا واحدًا فحسب لما يريد كتاب اللَّه أن يقوله، ويصنعه، ويقود إليه في آياته ومقاطعه وسوره جميعًا.

* * *
* *
*

(٦)

وعلى مدى كتاب اللَّه، يمكن للمرء أن يتابع نمطينِ، أو صفينِ، من المفردات المتضادة التي يتولى كل خط منها صياغة عالم يختلف في أسسه، ومعماره، وملامحه وتوجهاته ومغزاه عن العالم الآخر اختلافًا جذريًّا قد يمتد من الطول إلى الطول، الأمر الذي ينعكس - ابتداء - على وضع الإنسان في العالم العدل المضيء الذي يريد اللَّه ورسوله ﷺ إقامة بنيانه ودعوة الناس إلى دخوله، والعالم المُظلم المُعوج الذي يسعى الكهنة والمتسلطون والوضاعون والأرباب إلى إرغام المستعبدين والمستضعفين والأتباع على اجتيازه واعتقال أنفسهم في بنيانه المائل.

في الصف الأول نقرأ، على سبيل المثال لا الحصر:

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢].

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة: ٢].

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١].

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾ [النساء: ٥٨].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [القصص: ٧٧].

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ ﴾ [السجدة: ٧].

﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ ﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ ﴾ [الأعراف: ٥٨].

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة: ١٦٨].

﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ ﴾ [النور: ٢٦].

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٧].

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١].

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ [الصف: ٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا ﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المؤمنون: ٧٣].

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢].

وفي المقابل نقرأ – على سبيل المثال لا الحصر كذلك:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٦].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٨].

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ [يونس: ١٣].

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩].

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ [الشورى: ٤٢].

﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [الأعراف: ٥٨].

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ [النور: ٢٦].

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٢٢].

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [آل عمران: ٩٩].

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥].

﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٦].

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ٣].

* * *
* *
*

(٧)

جوهر الحياة التي يريدها الإسلام من خلال كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ هي في نبضها، وخطوطها، وبصماتها، ومنطلقاتها، وهدفها، ومنظورها، وصورتها الشاملة، وصيرورتها..

حياة تقوم على الطهارة، والنظافة، والمساواة، والأخوة، والتحرر، والعدل، والتكافل، والاعتدال، والوسطية، والبذل والإبداع والعطاء، واليسر والمرونة والسماحة والمحبة..

حياة تتجاوز الالتصاق بثقلة الأرض، لكنها تعرف كيف توفق بين الثنائيات..

حياة تمد المنظور البشري في العالم إلى أبعد الآفاق لكنها لا تغفل - لحظة - عن أقرب نقطة تخفق في حس الإنسان، أو بين يديه..

وهي - قبل هذا وذاك - أخذ عن اللَّه سبحانه، وتوجه إليه وحده، ورفض لكل صيغ الصنميات والربوبيات الخادعة التي تميل بالمستضعفين والمستعبدين ذلك الميل العظيم..

إنها التزام بالصراط حيث لا يتبقى في ساحة العالم سوى علاقة العبودية المتحررة، الخالصة للَّه، وصلات التواد

والمحبة والعدل والإخاء والتكافل والتعارف بين الإنسان والإنسان:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧].

* * *
* *
*

السِّيرَةُ الذَّاتِيَّةُ لِلمُؤَلِّف

أ. د. عماد الدين خليل.

- ولد الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل في الموصل عام (١٩٤١م).

- حصل على شهادة البكالوريوس (الليسانس) في الآداب بدرجة الشرف من قسم التاريخ بكلية التربية/ جامعة بغداد عام (١٩٦٢م).

- حصل على الماجستير في التاريخ الإسلامي بدرجة جيد جدًّا من معهد الدراسات العليا بكلية الآداب/ جامعة بغداد عام (١٩٦٥م). عن رسالته الموسومة (عماد الدين زنكي: ٤٨٧ - ٥٤١هـ/ ١٠٩٤ - ١١٤٦م).

- حصل على الدكتوراه في التاريخ الإسلامي بدرجة الشرف الأولى من كلية آداب جامعة عين شمس في القاهرة عام (١٩٦٨م). عن أطروحته الموسومة (الأمارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية والشام: ٤٦٥ - ٨١٣هـ/ ١٠٧٢ - ١٤١٠م).

- عمل مشرفًا على المكتبة المركزية لجامعة الموصل عام (١٩٦٧م). وكذلك عمل معيدًا، فمدرسًا، فأستاذًا مساعدًا، في كلية آداب جامعة الموصل للأعوام (١٩٦٧ - ١٩٧٧م).

- وأيضًا عمل باحثًا علميًّا ومديرًا لقسم التراث، ومديرًا لمكتبة المتحف الحضاري في (المؤسسة العامة للآثار والتراث، المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في الموصل، للأعوام ١٩٧٧ - ١٩٨٧م).

- حصل على الأستاذية عام (١٩٨٩م). وعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي ومناهج البحث وفلسفة التاريخ في كلية آداب جامعة صلاح الدين في أربيل للأعوام (١٩٨٧ - ١٩٩٢م). ثم في كلية التربية جامعة الموصل (١٩٩٢ - ٢٠٠٠م). فكلية الآداب جامعة الموصل. حيث لا يزال يعمل هناك.

- شارك الأستاذ الدكتور في عدد من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية داخل العراق وخارجه في الوطن العربي وأوروبا، وكذلك شارك في إنجاز عدد من الأعمال العلمية لبعض المؤسسات العربية والإسلامية وحاضر في الجامعات والمؤسسات العربية والإسلامية والعالمية وشارك في صياغة مناهج

التاريخ لعدد من الجامعات العربية والإسلامية وله مشاركة أيضًا في عضوية اللجان الاستشارية لهيئات تحرير عدد من المجلات العلمية والفكرية المحكمة وقد أنجز العديد من المواد العلمية في التاريخ والحضارة والفكر والأدب للموسوعات العربية والإسلامية.

- أشرف على العديد من طلبة الماجستير والدكتوراه في التاريخ الإسلامي، وكُتب عن أعماله عدد من رسائل الدبلوم العالي والماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات العربية.

- وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى عدد من اللغات وبخاصة الإنكليزية والفرنسية والتركية والفارسية والكردية والأندونيسية.

- أما بحوثه فقد نشر العشرات منها في العديد من المجلات العلمية والأكاديمية المحكمة.

- وأيضًا نشر مئات المقالات والبحوث الثقافية والأعمال الأدبية (دراسة وتنظيرًا ونقدًا وإبداعًا) فيما يقارب السبعين مجلة وصحيفة عربية وإسلامية.

- وقد قيم كتابه (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) من قبل مؤسسة أرامكس ميديا واحدًا من أفضل عشرة كتب في العالم لعام (٢٠٠٥م).

- وهو عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، واختير عضوًا في مجلس جامعة صلاح الدين في أربيل العراق للأعوام (١٩٨٩ - ١٩٩١م) ومجلس جامعة الموصل للأعوام (٢٠٠٣ - ٢٠٠٥م) ممثلًا عن التدريسيين.

كتب للمؤلف:

أ- الأعمال التاريخية:

١ - ابن خلدون إسلاميًا، ط٢، المكتب الإسلامي.

٢ - الأمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر، ط١، مؤسسة الرسالة.

٣ - تحليل للتاريخ الإسلامي: إطار عام، ط١، دار الثقافة.

٤ - التفسير الإسلامي للتاريخ، ط٥، دار العلم للملايين - بيروت.

٥ - حاضر المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي، ط١، دار النفائس - بيروت.

٦ - الحصار القاسي: ملامح مأساتنا في أفريقيا، ط٣، مؤسسة الرسالة.

٧ – حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، ط١، دار الثقافة – الدوحة.

٨ – دراسات تاريخية، ط١، المكتب الإسلامي.

٩ – دراسة في السيرة، ط١٧، مؤسسة الرسالة – دار النفائس.

١٠ – دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك مع المهندس حسن رزو)، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – عمان.

١١ – عماد الدين زنكي، ط٢، مؤسسة الرسالة.

١٢ – في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل، ط١، المكتب الإسلامي – بيروت.

١٣ – مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية، ط١، الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا.

١٤ – المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر: مونتغمري وات، ط١، دار الثقافة.

١٥ – المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل، ط١، مكتبة المعارف – الرياض.

١٦ – ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ط٨، مؤسسة الرسالة – بيروت.

١٧ – المنظور التاريخي في فكر سيد قطب، ط١، دار القلم – بيروت.

١٨ – نور الدين محمود: الرجل والتجربة، ط٢، دار القلم – دمشق.

١٩ – الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، ط١، دار الفكر – دمشق.

ب – الأعمال الفكرية:

١ – الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي، ط١، مؤسسة الرسالة.

٢ – أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار، ط٢، مؤسسة الرسالة.

٣ – آفاق قرآنية، ط٢، دار العلم للملايين.

٤ – تهافت العلمانية، ط٥، مؤسسة الرسالة.

٥ – حوار في المعمار الكوني، ط١، دار الثقافة.

٦ – حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ط٥، كتاب الأمة – الدوحة.

٧ – رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، ط١، كتاب الأمة – الدوحة.

٨ – الرؤية الآن: في هموم فلسطين والعالم الإسلامي، ط١، منشورات فلسطين المسلمة – لندن.

٩ - العلم في مواجهة المادية: قراءة في كتاب (حدود العلم)، ط٣، مؤسسة الرسالة.

١٠ - في الرؤية الإسلامية، ط١، دار الثقافة.

١١ - قالوا في الإسلام، ط١، الندوة العالمية - الرياض.

١٢ - القرآن الكريم من منظور غربي، ط١، دار الفرقان - عمان.

١٣ - كتابات إسلامية، ط١، المكتب الإسلامي - مكتبة الحرمين.

١٤ - كتابات على بوابة القرن الخامس عشر (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس)، ط٢، دار العلوم - الرياض.

١٥ - لعبة اليمين واليسار، ط٥، مؤسسة الرسالة.

١٦ - مؤشرات إسلامية في زمن السرعة، ط٢، مؤسسة الرسالة.

١٧ - متابعات في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة، ط١، دار الحكمة - لندن.

١٨ - مدخل إلى إسلامية المعرفة، ط٣، المعهد العالمي - فيرجينيا.

١٩ - مدخل إلى موقف القرآن من العلم الحديث، ط١، مؤسسة الرسالة.

٢٠ - المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي، ط١، دار الفرقان.

٢١ - مع القرآن في عالمه الرحيب، ط٣، دار العلم للملايين.

٢٢ - مقال في العدل الاجتماعي، ط٤، مؤسسة الرسالة.

جـ - الأعمال الأدبية:

١ - ابتهالات في زمن الغربة (شعر)، ط١، دار الوفاء - المنصورة.

٢ - الإعصار والمئذنة (رواية)، ط١، مؤسسة الرسالة.

٣ - جداول الحب واليقين (شعر)، ط٢، مؤسسة الرسالة.

٤ - خمس مسرحيات إسلامية (ذات فصل واحد)، ط١، مؤسسة الرسالة.

٥ - الرحيل إلى إسطنبول (من أدب الرحلات)، ط١، دار حضرموت.

٦ - ريبورتاج (حوار في الهموم الإسلامية)، ط١، دار الحكمة.

٧ - الشمس والدنس (مسرحية ذات أربعة فصول)، ط٢، دار الاعتصام - القاهرة.

٨ - الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (دراسة)، ط٣، مؤسسة الرسالة.

٩ - العبور (مسرحيات ذات فصل واحد)، ط١، دار المنارة - جدة.

١٠ - الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي (نقد)، ط١، دار الضياء - عمان.

١١ - فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة)، ط٢، مؤسسة الرسالة.

١٢ - في النقد الإسلامي المعاصر (نقد)، ط٤، مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٣ - في النقد التطبيقي (نقد)، ط١، دار البشير - عمان.

١٤ - كلمة اللّـه (قصص)، ط١، دار حضرموت - المكلا.

١٥ - المأسورون (مسرحية ذات أربعة فصول)، ط٢، دار الإرشاد - بيروت.

١٦ - الفن والعقيدة (دراسة)، ط١، مؤسسة الرسالة.

١٧ - متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (نقد)، ط١، مؤسسة الرسالة.

١٨ - محاولات جديدة في النقد الإسلامي (نقد)، ط١، مؤسسة الرسالة.

١٩ - مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (دراسة)، ط٢، مؤسسة الرسالة.

٢٠ - معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد)، ط١، مؤسسة الرسالة.

٢١ - المغول (مسرحية ذات سبعة مشاهد)، ط١، مؤسسة الرسالة.

* * *
* *
*

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٧٧٣٦ الترقيم الدولي I. S. B. N 978 - 977 - 717 - 032 - 8

الكِتَابُ في سُطُورٍ

عندما كنت طالبًا في قسم التاريخ، في مطلع الستينيات، كان أستاذ علم الاجتماع، لسبب ما، يسعى في كل محاضرة إلى تأكيد مسألة أن القرآن جاء لكي يطلب من الناس أن يضعوا السلاح إزاء السلطات التي تحكمهم، وإلى ضرورة طاعة أولي الأمر منهم وإلّا خرجوا من حظيرة الإيمان.. وكان يقتطع بعض الشواهد القرآنية لكي يؤكد وجهة نظره.. وفي كل مرة كان يتلو الآيات مضيفًا إليها أو منتقصًا منها.. وكان هدفه من وراء هذا أن يصوّر الإسلام كما لو كان دينًا سلبيًّا يخلق جماعات ممن اعتادوا لوي رؤوسهم لكل سلطة، وانعدمت في نفوسهم أية قدرة على الرفض والمجابهة...

وكم تمنيت، وأنا أتابع أطروحات القرآن الحاسمة بصدد العلاقة بين الجمهور والسلطة، وهي أطروحات ممتدة، متشابكة، مفروشة على مساحات واسعة، كما ستتابع في فصول هذا الكتاب.. تمنيت أن يرجع بي الزمن القهقرى، إلى أيام الدراسة الجامعية، وأن ألتقي بالأستاذ الذي كان يتشنج معتمدًا على جانب ضيّق محدود من الصورة لا يفسّر شيئًا.. أن أرجع إليه لكي أقول له هذا، أو أقنعه على الأقل بقراءة لكتاب اللّـه، بالتجرّد العلمي المطلوب، مرة واحدة فقط!!

الناشر